القرن الأول

1 – أبـو بكـر الـصديق

2 – عمـر بـن الخطـاب

3 – عثمـان بـن عفـان

4 – علـي بـن أبـي طالـب

5 – الإمـــام الحـــسين

6 – الـــسيدة زينـــب

7 – عمر بن عبد العزيـز

هـذا القـرن

في القرن الأول الهجري كما في بقية القرون ، يتضح لنـا معنـى الإسـلام كـدين ودنيا، فهو إلى جانب كونه يأمرنا باتباع تعاليمـه ، فإنـه يحثنـا عـلى العمـل ، ويقـرن العمل بالعبادة . بل ويجعل العمل الدنيوي نوعا من العبادات . ولذلك .. فالإسلام لم يقتصر على الجانب الروحى ، وإنما جعـل معـه الجانـب المـادي أيـضا ، والجانبـان يسيران معا في حياة المسلم .. وذلك لأنه حين تنمو الحياة في أحـضان الإسـلام غـير المتطرف.. فإنها تبلغ غاية أمنها ، ومنتهى سلامتها ، وكمال عافيتها ، وذروة قوتها .

ومنذ أن ظهر هذا الدين الحنيف ، وهو يقف إلى جوار هذه الحياة يشد أزرهـا ، ويقدس حقها ، ويعمل من أجل تطويرها ، ويواجه تحديات حاضرها ومستقبلها .

ورسالة هذا الدين، كانت للناس كافة في كل زمان ومكان . ولذلك .. كان هذا الدين بالنسبة للحياة أول مصلح ، وأهدى معلم ، وأرشد قائـد ، وأرحـم مـؤدب ، وأبصر مروض ، بما له من ركائز وتعاليم ، قيم ومبادئ ، أخلاق وفـضائل .. كانـت جميعها من أسباب انتصار إنسان ، وقيام دولة ، وبناء حضارة .

فالعلاقة إذا بين الدين والحياة في الإسلام .. علاقة وثيقة ووطيدة .. تبدو أكثـر وضوحا وبيانا للمدركين لجوهر أحكام الإسلام وتعاليمه .

ذلك .. أن الإسلام محيط شامل .. تستوعب أحكامه وتعاليمه كـلا مـن الحيـاة الدنيا والحياة الآخرة . فيتحدث عن كلتيهما معـا . ويبـين كيـف تفـضى إحـداهما إلى الأخرى ، وكيف تتصلان ، وكيف تمتزجان في نسيج واحد يعجز المرء عن تبين الحد

الفاصل بينهما . اللهم إلا في حقيقة : أن الحياة الدنيا عاجلة فانية ، والحياة الآخرة آجلة باقية .

والقرآن الكريم يؤكد في مجمل آياته الاهتمام بالدنيا والآخرة معا . وليس صدفة- والأمر كذلك - أن تتكرر كلمة الدنيا في آياته ١١٥ مرة وهو العدد نفسه الذي تكررت به كلمة الآخرة . على الرغم من أنه ليست كل الآيات التي وردت فيها الدنيا ترد فيها الآخرة . وهذا التساوي في عدد كلمات الدنيا والآخرة في القرآن الكريم يعتبر أصدق شاهد ، وخير دليل على اهتمام كتاب الله بالدنيا والآخرة معا .

ومن هذه الآيات التي تؤكد اهتمام القرآن الكريم بالدنيا والآخرة قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[1] وقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾[2] .

كذلك تدعونا الأحاديث النبوية الشريفة إلى العمل من أجل الدنيا والآخرة معا حيث قال ﷺ : « **ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه** » ، وقال : « **إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصوم ولا الصلاة** » **قيل : فما يكفرها يا رسول الله؟** قال: «**الهموم في طلب العيش**»، وقال: « **عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة** » ، وقال : « **علم ساعة خير من عبادة عشر سنين** » ، وفي دعائه ﷺ كان يقول : « **اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك**

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) يونس : ٦٢- ٦٤ .

في الدنيا والآخرة » ، وذلك على ضوء قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾ (١) .

فالإسلام بنص كتابه المبين ، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع علمائه رضوان الله عليهم .. يدعو إلى الاهتمام بالدنيا والآخرة معا . وهو في توجهه – على هذا النحو – لم يقتصر على جانب العبادات وحدها ، متجاهلا جانب طلب العيش .. فالسماء لا تمطر ذهبا للقاعدين عن السعى . ولم يقتصر على الجانب الروحى في الآخرة فحسب ، بل على الجانب المادي في الحياة ، إذ وكيف يتجاهل هذا الجانب المادي ، والله عز وجل قد خلق الإنسان من روح ومادة ، ولم يأمر أيا من الروح أو المادة أن يهدم الجانب الآخر أو يرميه بالضعف أو التقصير !؟

إن من الأهداف الجليلة لهذا الدين الحنيف : الموازنة بين عنصري تكوين الإنسان : (الروح والمادة) فيعطى الروح حقها ،ويعطى للمادة حقها أيضا ، ويعدل بينهما عدلا تصلح به الحياة الدنيا بشكل يؤهله للخير في الحياة الآخرة .

وعلى هذا .. فكل خطوة تخطوها في الحياة الدنيا مباركة بأمر الله ، إذا اتصلت بالمثل الأعلى الذي يسميه الإسلام الحياة الآخرة ، وكل عمل تؤديه في الحياة الدنيا يصير نافعا بإذن الله ، إذا وضعت نصب عينيك الحياة الآخرة . وملعونة هذه الدنيا إذا أصبحت وحدها غاية ، وما استحق محبها إلا الشقاء .

إذا .. في الإسلام تتداخل الحياة الدنيا والحياة الآخرة . تداخلا يجعلهما كلا لا ينفصل ؛ فكل عمل في أولاهما له أثر في أخراهما . والعمل الدنيوي لا يحكم عليه في ذاته ، وإنما يحكم عليه بغاياته و أهدافه .

وتداخل الحياة الدنيا والحياة الآخرة هو تداخل مبهر ينتج عنه توازن مدهش حققه الإسلام بين الروح والمادة ، بين المثالية والواقعية ، إلى درجة أن فلاسفة الإسلام يحكمون على الإسلام بأنه مثالي في واقعيته ، وواقعي في مثاليته .

---

(١) البقرة : ٢٠١ .

ولعل هذا التوازن العظيم في الإسلام هو الذي جعل الحضارة الإسلامية متميزة عن غيرها من الحضارات؛ فلم يطغ الجانب المادي على الجانب الروحي حتى يصبغ الروحانيات بصبغته على نحو ما هو معروف في الحضارة الغربية: قديمها وحديثها ، ولم يطغ الجانب الروحي على الجانب المادي حتى يصبغ الماديات بصبغته على نحو ما هو معروف في بعض حضارات الشرق القديم . بل حرص الإسلام على هذه الموازنة ، بشكل جعل المهتمين بدراسة الحضارات يذهبون إلى القول بأن الإسلام من زاوية حضارية ، قد صبغ الحضارة الإسلامية بصبغة مميزة وطابع فريد .

وهذا التوازن بين الروح والمادة في الإسلام اعتبر من عناصر قوته الكامنة التي يستطيع أن يواجه بها تحديات حاضره ومستقبله . وهذه القوة بالذات يتنبه إليها من آن لآخر الأجانب ، فيعملون إما على إضعافها بأفكار وخطط أقلها : إذاعة الافتراءات والأباطيل ، أو يثبتون ما تنطوي عليه من عناصر وحقائق بطريقة الدق إلى جانب الأذن . حتى تواجهها أقوامهم . ومن الفريق الثاني جماعة من المفكرين الذين عرف الإنصاف إلى قلوبهم سبيلا ، ومنهم المفكر الألماني : «باول شمتز» في كتابه: (الإسلام قوة الغد العالمية) الذي ترجمه العالم الجاد الدكتور «محمد شامة».

والسؤال الآن: كيف كانت آثار هذا التوازن بين الروحانيات والماديات. أو بين الدنيا والآخرة أو بين الدين والحياة . في انتصار مجتمع وقيام دولة ، وبناء حضارة؟

للإجابة على هذا السؤال، لابد أن نتفق أولا على : أن المجتمع والدولة والحضارة هي جميعها من دنيا المسلمين . وهي كدنيا المسلمين فعليها أن تتسم بمبادئ وقيم وأخلاقيات الإسلام . بعد ذلك سنرى تحقق هذا التوازن بين الدين والحياة عند المسلمين في حربهم أو سلامهم .. في تربيتهم أو تعليمهم .. في تعظيمهم لدور العقل أو إيمانهم بقيمة الفكر.. في تقديرهم للعلم أو رؤيتهم للعمل أو إدارتهم

للحكم .. في رفضهم لأساليب الإرهاب أو مقاومتهم لأشكال القمع ، أو تحديهم لألوان العدوان . وغير ذلك مما يدخل في معنى الإسلام كدين ودنيا .

و نبي هذا الدين ﷺ حرص على هذا المعنى حيث كان يحث المسلم على أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . ولتأكيد هذه المعاني مع غيرها ، كان ﷺ يحرص على القول القرآني بأنه : ﴿ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾[1] بمعنى أنه إنسان مثلنا ، إلا أنه صاحب رسالة سماوية ، والمبادئ التي يحملها هي ليست من ابتداعه ، وإنما هي مما يوحى إليه . وكل تعاليم الإسلام لم يأت بها النبي ﷺ من عنده ، وإنما جاءته عن طريق الوحي . هذا ما فهمته كقارئ من سياق الأحداث في كتاب (محمد رسول الحرية) للأستاذ «عبد الرحمن الشرقاوي» وعلى ضوء ما فهمت ، أستطيع القول بأنه حقا أن النبي ﷺ بشر مثلنا ، ولا يجول بخلدنا أن يخرج عن هذه البشرية، ولكنه بشر يوحى إليه، وهذا هو الفارق بين بشريته ﷺ ، وبشريتنا نحن . هو ﷺ بشر مثلنا ، ولكن لا ينطق عن الهوى ، هو ﷺ بشر مثلنا ولكن اصطفاه رب العرش العظيم ليرسله رحمة للعالمين ، هو بشر مثلنا ، ولكن يخاطبه الله سبحانه وتعالى بالقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[2] .

ولعل هذا ما تناوله أستاذنا الحكيم عند نشر كتابه عن النبي ﷺ ردا على بذاءات المفكر الفرنسي : «فولتير» فاستطاع أن يخرج من هذا الموقف حين كتب (محمد الرسول البشر) فهو يقدم دلالات الرسالة التي تقنعنا ، وفي الوقت نفسه يقدم الإثباتات الإنسانية التي يقتنع بها مواطنو «فولتير» . ونفس الأمر نجده عند الأستاذ «العقاد» حيث أراد أن يتكلم عن معنى « الرجل » في كتابه : (عبقرية محمد) فكان فصلا من فصول الكتاب .

---

(1) الكهف : ١١٠ .

(2) القلم : ٤ .

فإذا اتخذ الكاتب عن النبي الكريم - أي كاتب - هذه العبارة القرآنية : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[1] نغمة سائدة في صفحاته ، فلا يعني ذلك أنه يتوقف عند البشرية فحسب . بل يتجاوزها إلى معان كثيرة :

فهو النبى الذي يؤاخي بين العبيد والسادة ، بين المأجورين والملاك ، بين الفقراء والأغنياء .. ويجعل من الصدق والأمانة والوفاء دستورا للعلاقات بين الناس ، ويضع كل بريق خاطف زائف تحت قدميه . لكنه يؤكد دائما (**أنا بشر مثلكم**) وهذه اللمحات لا تأتي إلا من بشر يوحى إليه .

وهذه الحضارة الإسلامية التى أضاءت ظلام أوروبا في العصور الوسطى هي من تعاليمه ، ولا يستطيع إقامتها إلا نبي يوحى إليه .

وللتأكيد على هذه المعاني التى أقرها النبي ﷺ نواصل الحديث عنها في أعمال الخلفاء الراشدين الأربعة والحسين بن على بن أبي طالب وشقيقته السيدة زينب ، وخامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز كمجددين في الإسلام .

* * *

(1) الكهف : ١١٠ .

أبو بكر الصديق

وكما صنع ثلاثة من جيل الرواد في التاريخ للصديق أبي بكر رضى الله عنه . فكتب الدكتور هيكل (الصديق أبو بكر) ، والأستاذ العقاد (عبقرية الصديق) ، والدكتور طه حسين (الشيخان : أبو بكر وعمر) ، وكتب ثلاثة آخرون من الجيل التالي هم: خالد محمد خالد، وعبد الحميد جودة السحار، وعبد الرحمن الشرقاوي.. نحاول أن نشير إلى هذا الخليفة العظيم في هذه الصفحات .

والقارئ لما كتبه هؤلاء وغيرهم عن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضى الله عنه ، يكتشف ذلك الإعجاب والتقدير الذي يضمرونه لهذه الشخصية الفذة في تاريخ الإسلام . لا لكونه شخصية كاملة الإيمان اتصلت بالنبى الكريم ورسالته السمحة ، وإنما كشخصية لها جاذبيتها التاريخية التي تخطف انتباه المتابع لتاريخ صدر الإسلام ، وتثير في نفس الفنان الحب والإكبار للوفاء الجليل الذي اتسمت به هذه الشخصية العظيمة .

فالصديق صاحب العظمة الصامتة التي تأبى أن تتحدث عن نفسها ؛ لأنها عظمة الروح العالية، والجلال النبيل الذي يستحي أن يعلن عن نفسه؛ لأنه من نعمة الإيمان.. لابد أن يتوقف عنده التاريخ ليسجل من مواقفه وأعماله صفحات من نور. لقد تحمل هذا الشيخ الوقور من الأعباء ما ينوء بحمله كوكبة من أشداء الرجال . وأي عبء يساوي أن يكون هذا الشيخ الرقيق في خلافة نبي؟ أي قدر مقدور هذا؟ خليفة نبي وأي نبي !؟ سيد المرسلين ؛ لقد كان من عبئه المقسوم أن يجمع شمل خير أمة أخرجت للناس . وأن يكون ثابت الجأش والجنان لحظة أن وقعت الواقعة بوفاة

الرسول حبيبه وخليله، والقوم بين كثرة مكذبة وقلة مصدقة ، وكيف يصدقون وهم يظنون أن الرسول سيظل حيا يشهد لأمته : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] وأن يكون – من بعد – القائد والسياسي والداعية الذي تكون ضمن مهامه انتشار دعوة الحق وتثبيتها في مشارق الأرض ومغاربها ، يفعل ذلك وهو البشر الذي لا يوحى إليه !

ترى بعد ذلك .. هل كان الصديق أبو بكر هو الخليفة المختار من بين صحابة رسول الله ، ومنهم العشرة المبشرون بالجنة لحمل هذه المسئوليات الجسام ؟ سؤال أطرحه لتجيب عليه هذه الصفحات إجابة تبدو ملامحها من لحظات إعداد رسول الله ﷺ لصديقه أبي بكر خليفة من بعده . فيبين للمؤمنين ما أنزل في أبي بكر من آيات بينات كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[2] . إشارة إلى النبي الكريم وصديقه أبي بكر ، وقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[3]. إشارة إلى اللوم الذي تلقاه أبو بكر من والده أبي قحافة ؛ لأنه ينفق أمواله في تحرير العبيد ليدخلوا الإسلام . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[4] . إشارة إلى صحبة أبي بكر للنبي ﷺ في الغار في لحظة من حياة الرسول هي لحظة الشروع في قتله .

(1) البقرة : ١٤٣ .
(2) الزمر : ٣٣ .
(3) الليل : ٥ – ٧ .
(4) التوبة : ٤٠ .

ولا يمكن أن ينسى التاريخ موقف الثبات لدى أبي بكر لحظة وفاة النبي ، وانقسام المسلمين بين مصدق لهذا الخبر ، ومكذب له من فعل الصدمة . هنا واجههم أبو بكر في ثبات ، قائلا : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ، وموقفه من قبول بيعة المؤمنين له خليفة لرسول الله وهو الزاهد العزوف عن الإمارة والخلافة ، الحريص على حياة الإحسان والهدوء والطمأنينة والعمل الصالح ، الرافض لتبعات الخلافة ومسئولياتها الجسام .

ولعل هذا يطرح سؤالا : لكن لماذا قبل البيعة، فتولى الأمر وهو كره له ؟ ولعله رضي الله عنه يجيب على ذلك بالقول : « قبلتها منهم لأني تخوفت أن تكون فتنة من بعدها ردة » .

ولا يستطيع أن يقول قولا كهذا غير إنسان صلته حميمة بالنبي الكريم إلى الدرجة التي تسمح بإفشاء هذا السر الخطير الخاص بارتداد مؤمنين عن الإسلام بعد وفاة الرسول . والحق أنه كان عند حسن ظن الرسول الكريم به ؛ لأنه استطاع أن يقضي على الفتنة في مهدها .

وموقف ثالث من أبي بكر حيث نفذ أمر رسول الله ﷺ ، على الرغم من كره البعض في أن يقود «أسامة بن زيد» الشاب ابن العشرين جيشا للمؤمنين به كبار الصحابة ، ومنهم عمر بن الخطاب . حتى وإن تبرم كبار الصحابة لهذا الأمر وغضبوا منه ؛ لأنه ينفذ أمر النبي الذي لا يقوى على مخالفته حتى وإن قتل في سبيله. وموقف رابع هو : التصميم على المقترحات الإسلامية غداة توليه مباشرة استكمالا لما كان سيفعله النبي الكريم لنشر الدعوة في الشام والعراق وفارس ، والانتصار على القوتين العظميين في العالم القديم : الروم والفرس ، وقد تم ذلك في خلافته التي لم تستمر أكثر من سنتين وبضعة أشهر .

ثم موقفه الحاسم من اختيار خليفته : عمر بن الخطاب .. بعد مشاورة للصحابة ، واستناد إلى قول رسول الله في ابن الخطاب « وأن تؤمروا عمر تجدوه أمينا لا يخاف في الله لومة لائم » .

ثم تأمل سلوكيات هذا الخليفة العظيم .. صاحب المنزلة الكبرى عند الله ورسوله والمؤمنين ، وأولها أنه كان يأكل ويعيش من عمل يده . حتى بعد أن أصبح خليفة لرسول الله .

حتى لقيه عمر بن الخطاب ، وابن الجراح حاملا ثوبين على كتفه ليبيعهما ، فقالا له : « أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق . قالا : « تصنع هذا ، وقد وليت أمر المسلمين ؟ » . قال أبو بكر : « فمن أين أطعم عيالي » . قالا : « انطلق معنا حتى نفرض لك شيئا » ، ويرد عليهما : « لا تطيب نفسي بأن آكل وأطعم إلا من عملي » ولم يوافق على قبول ما يطعمه وأولاده من بيت المال أكثر من ثلاثة دراهم . ومنذ ولي أبو بكر الخلافة أصبح أفقر رجل في رعيته وكان قبلها تاجرا غنيا . بالضبط كما كان قبل دخوله الإسلام من أكبر أثرياء الجزيرة العربية ، وواحد من قلائل أنفقوا على جيش المسلمين .

وما أروع أبا بكر وأعظمه يوم تولى أمر المسلمين فقال : « أما بعد ، أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوموني. الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله » .

هذا هو أول الخلفاء : الصديق أبو بكر، وهذه خلافته التي حمى الله بها الإسلام، لتتيح للإنسانية كلها نهضة تمكنها ، وتمكن المبادئ والقيم والفضائل من الانتصار ، ولتحمي الدنيا من هجير التعصب والجهالة .. وكانت – حقا وصدقا – حصنا لحرية العقيدة و الفكر والإرادة .. ولكم يدين الإسلام لأبي بكر .

كذلك تبدو منزلة أبي بكر عند النبي ﷺ من أحاديثه ، حيث يقول : « **يا أيها الناس ، احفظوني في أبي بكر** » ويقول : « **رحم الله أبا بكر ، زوجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالا من ماله ، وما نفعني مال في الإسلام قدر ما نفعني مال أبي بكر** » ويقول : « **ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت منه كبوة وتردد إلا أبا بكر ما عتم (ما تمهل) وما تردد** » . ويقول : « **لو كنت متخذا غير ربي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته** » ، ثم يقول : « **أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ...** » .

كذلك وضح إعداد النبي ﷺ لأبي بكر لتولي الخلافة من بعده حيث جعله أميرا على الحج في العام التاسع للهجرة ، وحيث جعله يصلي بدلا منه بالناس عندما اشتد به المرض .

ولا شك أن أبا بكر يستحق هذه المنزلة والتقدير من الله ورسوله ، والإكبار والإجلال من الناس . فهذا الرجل الوديع الرقيق السمح ، تنطوي نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد أو الإحجام ، وقدرة ممتازة على اتخاذ القرارات والمواقف . ولقد تجلت هذه القدرة والقوة معا حين قبض الرسول عليه الصلاة والسلام ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، فواجه الناس الذين كادت عقولهم تذهب منهم .

ولهذا .. ولغيره من أسباب ، كان أبو بكر جديرا بأن يكون أول المجددين في الإسلام ؛ نظرا لمواقفه الجليلة ، وأعماله التى أنقذت الإسلام من ردة أطلت على هذا الدين بعد وفاة النبي ﷺ ، والانتصارات التي حققها لنشر دين الله ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية في العالم القديم .

* * *

عمر بن الخطاب

وقبل أن يقبض أبو بكر رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى، اختار عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- خليفة من بعده. وقد لاقى هذا الاختيار رضا وارتياحا ؛ حيث تم اختيار الرجل المناسب لتحمل المسئوليات الجسام، خاصة وأن الخليفة الجديد له منزلة كبيرة .

وأي منزلة لبشر حين ينزل القرآن موافقا لرأيه . مثلا قال عمر للنبي ﷺ : « لو اتخذنا مقام إبراهيم مصلى يا رسول الله»، فنزلت الآية : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[1] . وقال عمر للنبي ﷺ عندما صلى على رأس المنافقين عبد الله بن سلول: « إنه منافق لا يستحق الصلاة » ، فنزلت الآية : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[2] .

وقال عمر لنساء النبي عندما اعتزلهن غضبا منهن : « إن انتهيتن ، أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن » ، فنزلت الآية : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾[3] . وكان لعمر رأي آخر غير أخذ الفداء من أسرى بدر ، فلما أخذ المسلمون الفداء نزلت الآية : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4] . كما دعا عمر الله سبحانه وتعالى أمام النبي ﷺ قائلا : « اللهم بين لنا في الخمر حكما

(1) البقرة : ١٢٥ .
(2) التوبة : ٨٤ .
(3) التحريم : ٥ .
(4) الأنفال : ٦٧ .

شافيا ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾[1] . حتى قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[2] . فقال عمر : « انتهينا يا رب » .

ومنزلة عمر بن الخطاب عند النبي ﷺ كانت كبيرة ؛ حيث قال : « **إن الله تبارك وتعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه** » ، وقال : « **يكون في الأمم محدثون أي : ملهمون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر** » ، وقال : « **عمر معي وأنا مع عمر ، والحق بعدي مع عمر حيث كان** » ، وعن عمر وأبي بكر قال : « **هما لابد لي منهما .. هما بمنزلة السمع والبصر** » . وعنهما قال أيضا لعلي بن أبي طالب : « **هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين.. ولا تخبرهما يا عِلي** » ، وقال : « **اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب وعمرو ابن هشام** » .

ذلكم هو عمر بن الخطاب خليفة رسول الله الذي قال : « والذي بعث محمدا بالحق ، لو أن دابة هلكت بأقصى أرض المسلمين لأخذ بها عمر يوم القيامة » ، والقائل أيضا : « لا تقولوا لي الرأي الذي تظنونه يوافق رأيي ، بل قولوا الرأي الذي تحسبونه موافقا للحق » وهو عمر بن الخطاب الذي سأل يوما سلمان الفارسي قائلا: « أملك أنا أم خليفة ؟ فقال سلمان : يا أمير المؤمنين إن بين الملك والخلافة فرقا ، قال عمر : وما هو ؟ قال سلمان : الخليفة : لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في الحق . فأنت بحمد الله كذلك » .

هذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التاريخ . فماذا عنه عندما يتناوله كاتب مثل «عبد الرحمن الشرقاوي» غير ملتزم بالتسلسل أو السرد التقليدي . نراه

(1) المائدة : ٩٠ .

(2) المائدة : ٩١ .

يخط أولى ملامح هذه الصورة بأنه كان واحدا من سبعة عشر يتقنون القراءة والكتابة في مكة كلها . وأنه حافظ لأشعار العرب وأنسابهم ، وأنه مهتم بتحصيل معارف عصره ؛ حيث لا يستغل السفر للتجارة فحسب ، وإنما لمعرفة طبائع الشعوب المجاورة .

وملامح أخرى ، كل واحدة تقدم معاني ودلالات للفاروق عمر ، فتقدمه حين أسلم فأعز الإسلام وأعلنه حين قال للنبي ﷺ : « والذي بعثك بالحق ، لأعلنن الإسلام كما أعلنت الشرك » يقدمه وزيرا لخليفة رسول الله أبي بكر ، مطيعا ملتزما مدركا لمسئوليته مجتهدا مجددا ، مستلهما روح الشريعة من النص والسنة على اعتبار أن هناك قضايا ومشكلات استحدثت بعد وفاة النبي ﷺ توجب على ولي أمر المسلمين أن يستنبط لها الأحكام المناسبة كما علمه مع بقية الصحابة رضوان الله عليهم النبي الكريم .. أن يتدبروا ويتفكروا .

يقدمه والقوم يبايعونه بالخلافة ، وكيف أقبلت عليه الجماعات والأفراد ، يقول الواحد منهم يا خليفة رسول الله ، فيرد عمر رضي الله عنه وكأنه يتعجل الإصلاح حتى في الكلمات العادية فيقول : « والذي سيأتي بعدي ستنادونه يا خليفة خليفة خليفة رسول الله هذا شيء يطول .. » ، ثم قال : « أنتم المؤمنون وأنا أميركم .. فأنا أمير المؤمنين .. فكان هو أول من لقب بهذا اللقب . ويقدمه لنا «الشرقاوي» في حربه وسلمه ، في احترامه للمبادئ والقيم ، في زهده عن طيبات الحياة ومباهجها ، في شدته ورقته ، في إقامته لدعائم أركان دولة إسلامية تمتد من بحر قزوين شرقا ، وحدود تونس غربا ، وبلاد الروم والصقالبة شمالا والسودان جنوبا . حتى أصبحت دولته الإسلامية أكبر دولة عرفها العالم القديم إلى جانب كونها أكبر دولة تأسست على المبادئ والقيم ، وليس على الظلم والاستبداد .

وإذا كان لكل كاتب فكرة تدور حولها صفحات كتابه ، فماذا عن الفكرة التي تدور حولها صفحات كتاب « الشرقاوي » عن الفاروق عمر ؟ من قبل ، نرى مثلا فكرة الدكتور طه حسين في تناوله لشخصية هذا الخليفة العظيم في كتابه: (الشيخان) بأن المسلمين لم يعرفوا خليفة بعد عمر عني بأمر الدين وإقامة الحدود وجعل بيت المال ملكا للسائل والمحروم ، ووفر للجميع الرزق دون أن يمنعهم عن العمل . ودارت فكرة الدكتور هيكل في صفحات كتابه : (الفاروق عمر) حول تكوين الإمبراطورية الإسلامية على أساس قوي من الخلق المتين ، وأنه إذا صح للمؤرخين أن يشيدوا بعظماء كالإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون لأنهم أقاموا إمبراطوريات، فالأحرى بهم أن يكونوا أكثر إشادة بعظمة عمر بن الخطاب الذي أسس إمبراطوريته على هذا الخلق المتين . ودارت فكرة الأستاذ العقاد في تناوله لهذه الشخصية الأسطورية حول طبيعته كجندي يتسم بالشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنخوة والنظام وتقدير المسئوليات والإيمان بالحق والواجب والإنجاز ، ومن هذه تكونت عبقرية عمر ، تلك التي أعزت الإسلام ودعمته . فإذا كانت هذه فكرة السابقين ، فإن الفكرة عند الأستاذ الشرقاوي التي تدور حولها صفحات كتابه مستحدثا للعديد من الإنجازات والأعمال والمواقف الخالدة . فالفاروق عمر هو أول من دون الدواوين ، ونظم القضاء ، وقرر الرواتب الشهرية للعمال ، ووضع التاريخ الهجري ، وأشعر أهل البلاد المفتوحة بأنهم والعرب سواء ، جاعلا دستور العلاقات قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] ، وقول رسوله : « **لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى** »[2] وكان أول من جعل الخراج على أهل الأمصار ، والجزية على أهل الذمة ضامنا لهؤلاء وهؤلاء حماية الدولة .

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) أحمد بن حنبل / 5 / 411 .

وهو أول قاض في الإسلام ، وأول من جعل للقضاء سلطة مستقلة ، ووضع أصول التقاضي لضمان حق كل إنسان في قدر متساو من العدل ، وهو أول من عين أهل الفتوى ليعلموا المسلمين أصول دينهم . وكان أول حاكم كفل للناس حرية العقيدة ، وأول من جمع الناس على قيام تراويح رمضان ، وأول من كشف المتاجرين باسم الدين ، وأول من اهتم بأن يكون الإسلام مهذبا للضمائر ، معلما للنفوس والعقول .

والفاروق عمر ، كان أول من حاسب عماله حسابا عسيرا ؛ مكن الرعية المظلومين من الرعايا الظالمين المستبدين ، وأول من كتب أموال العمال عند توليتهم إدارة الأمصار حتى يضم إلى بيت المال ما يزيد باستغلالهم نفوذهم ، ولعله أول من سأل ولاته سؤال : من أين لك هذا ؟ وهو أول من اهتم بقيمة العمل وتفضيله أحيانا على العبادة .

كذلك كان عمر بن الخطاب أول أمير للمؤمنين يتفقد أحوال الرعية في النهار والليل رافعا عنها إصرها وظلمها ، محررها من الأغلال التي يضعها من بيده حاجة الناس حقا .

* * *

عثمان بن عفان

لا شك أن تناول شخصية ثالث الخلفاء الراشدين : عثمان بن عفان رضى الله عنه بالدراسة ، يضع الباحث أمام صعوبات شتى ، مصدرها : أن بداية ولايته أمر المسلمين اقترنت بالفتنة الكبرى ، تلك التى انتهكت بسببها الحرمات . وقضى على هيبة الخلافة الإسلامية ، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى شيع وأحزاب وجماعات وتيارات ، دخيلة على الإسلام من الخارج ، أو في قلب الإسلام من الداخل .

ومما يضاعف الأمر صعوبة هو : أن المادة التاريخية تأتي متباينة الأغراض والأهداف . ذلك أن للمؤرخين القدامى أو حتى المعاصرين آراء مختلفة في تقييمهم لهذه الفتنة وأسبابها ، فمنهم من يستبد به الهوى لآل البيت بشكل يجانب الموضوعية. ومنهم من ينحاز إلى بنى أمية الذين كان ينتسب إليهم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومنهم من كان يلقى اللوم على الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ؛ حيث لم يطوق هذه الفتنة التى كان من نتيجتها مقتل ثالث الخلفاء الراشدين والمصحف بين يديه دون اعتبار لشيخوخته .

وهذا الاختلاف نلمحه أيضا عند المعاصرين في تناولهم لهذه الشخصية العظيمة . فالدكتور «طه حسين» يخصص لهذه الفتنة جزأين ، وعندما يتحدث عن عثمان رضى الله عنه لا يؤرخ لولايته أو مقتله بقدر ما يؤرخ لنظام الحكم الإسلامى وعناصره ، فهو لا يقدم صورة الفرد بقدر ما يقدم صورة متكاملة العوامل والتيارات التي كان يموج بها عصر الخليفة الشهيد . ونجد الدكتور «هيكل» في تناوله لهذه الشخصية يهتم بذلك الجدل الدائر بين الفرق الإسلامية في أمر خلافة

عثمان رضى الله عنه وأحقية على بن أبي طالب كرم الله وجهه بهذه الخلافة أمرا جعل هذه الفرق تحاول التشكيك في شرعية خلافة كل من أبي بكر وعمر رضى الله عنهما حيث ترى أن الخلافة - حقا - لعلي ، وهذا الحكم كان يتطلب حاكما يستطيع أن يستوعب كل هذه المشكلات ويتجاوزها . على اعتبار أن لشخصية الحاكم أثرا بالغا في سياسة الدولة وتصريف أمورها. وأما الأستاذ العقاد : فقد ذكر في كتابه : (ذو النورين : عثمان بن عفان) أن من سمات شخصية ثالث الخلفاء : أنها أقرب إلى الطيبة والسماحة منها إلى البأس والصرامة ؛ فلأنه كان طيبا سمحا فهو لم يعبأ بأشياء كثيرة ، لعل أقلها أن يضع حراسا حول بيته ليمنعوا عنه القتلة . ويتساءل العقاد : هل ما حدث لعثمان رضى الله عنه كان من الممكن أن يحدث لواحد من عماله كمعاوية بن أبي سفيان ؟ الأمر يختلف بين شخصية عثمان رضى الله عنه الذي قصر في حق نفسه أكثر مما قصر في حق الرعية.. وغيره كمعاوية الذي أرادها ملكا عضوضا أكثر منها خلافة تقية .

لا ريب إذا .. في أن الكاتب لشخصية عثمان بن عفان تواجهه صعوبات مثل هذه الصعوبات التي واجهت السابقين ، ولكنه لم يعلن عنها ، وإن كان القارئ قد أدركها فيما يبذله الكاتب من مجهود عظيم .

إن أول هذه الصعوبات : اختلاف المؤرخين حول بيعة ثالث الخلفاء ، والتي تمت وفق حيلة مدبرة لإقصاء الإمام علي وبني هاشم عن الخلافة .

فهناك من يسجل أحداث يوم البيعة ، وكيف ظهرت النوايا وكشفت الحيلة حتى قال الإمام على : « ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه على ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ، وعلى الرغم من هذا يبايعه الإمام علي ؛ لأنه أعرف الناس بفضله ودوره في الإسلام ، يبايعه لأنه يدرك أن هذا التكليف بالخلافة لعثمان ليس تشريفا له ولتاريخه المجيد .

لقد واجهته مشكلات عديدة ، تكون الأولى منها بعد بيعته مباشرة ، وهي في قتل عبد الله بن عمر بن الخطاب لثلاثة انتقاما لقتل أبيه أمير المؤمنين . فهل يقر الخليفة الجديد هذا التصرف ، فيبيح دم المسلم أم لا يقره ؟ أيقتص من ابن أمير المؤمنين المقتول ؟ ولا يجد ثالث الخلفاء حلا خيرا من دفع دية القتلى من ماله الخاص حقنا للدماء . ترى هل هذا هو الحل الأمثل ؟!

وفي تناول شخصية الإمام علي وسط هذه الأحداث. نجد الأستاذ «الشرقاوي» وقد كتب مجلدين عن عثمان وعلي رضي الله عنهما تحت عنوان (علي إمام المتقين) . يختلف كثيرا عن الدكتور طه حسين الذي كتب عنهما مجلدين أيضا تحت عنوان : (الفتنة الكبرى) فالشرقاوي يحفل كثيرا بالتأريخ للإمام علي ، ويجعله رجل الساعة حتى في تأريخه للخليفة عثمان بن عفان . على الرغم من أنه يسجل أن ثالث الخلفاء لم يجعل الإمام عليا وزيرا له ، وإنما جعل أحد أقاربه وهو مروان بن الحكم وزيرا . وأن ثالث الخلفاء كان لا يستغني عن مشورة الإمام علي ، فيستدعيه ويتفقان على رأي . لكن سرعان ما يتركه الإمام علي ويحيط بثالث الخلفاء مستشارو السوء فيرجع عما اتفق عليه . ويستمر المحيطون بثالث الخلفاء في الدس بينه وبين الإمام علي ويوقعون بينهما حتى يطلب منه ثالث الخلفاء مغادرة المدينة فينفذ الإمام علي مكرها . ويجمل الشرقاوي هذا الموقف قائلا : « فلا علي كرم الله وجهه بالقادر على إقناع عثمان رضي الله عنه فينقذه بمشورته ، ولا عثمان بمستطيع أن يتخلى عن ذوي قرباه من بني أمية الذين يتخيلون أن عثمان يحابيهم ، ولا يدركون أنه يبرهم امتثالا لأوامر الله ورسوله بذوي القربى . وهكذا اقتنصوه من فضيلته وقد كان أوصل الناس بالرحم» .

والحق .. أن الشرقاوي اهتم برصد نفوذ أقارب عثمان رضي الله عنه بشكل غطى على جوانب أخرى كان القارئ ينتظرها من كاتبه الكبير ، ومنها تحديد نظام الحكم في عصر خلافة عثمان رضي الله عنه ، وهل كان نظام الحكم تيوقراطيا

أم ديمقراطيا أم ملكيا أم قيصريا أم كسرويا ؟! أم أنه كما وصفه الدكتور طه حسين : «النظام العربي المبتكر»؟!

وعلى الرغم مما صاحب اختيار ثالث الخلفاء من أزمات مصدرها أقاربه ، إلا أنه استطاع رد أطماع الروم في الدولة الإسلامية . وتم في عهده فتح قبرص وبلاد الأفغان وأرمينية وآسيا الصغرى ، وازدادت الدولة اتساعا ، كما ازدادت تكدسا بالأموال في بيت المال . هذا صحيح ، إلا أن هناك نقاط ضعف ليته كان قد تجاوزها وكان من الممكن تجاوزها ، منها : أنه أباح مغادرة كبار الصحابة للمدينة ، وأنه لم يستشرهم كما كان يفعل كل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنه أحاط نفسه بنفر من بني أمية على رأسهم الداهية «مروان بن الحكم» .

وما عاد عثمان رضي الله عنه ، ليسمح من أحد غيرهم وهم ما برحوا يغرونه بالمبالغة في الشدة على الناس ، ومنها ظهوره في أبهة لم يتعودها الإسلام ؛ حيث يقيم فسطاطا كبيرا يقيم فيه أيام الحج ، ومنها أيضا أنه يهب إبل الصدقة لوزيره مروان ابن الحكم ، إلى غير ذلك من أمور تجعل القوم يشكون إلى الإمام علي الذي يذهب بدوره إلى عثمان رضي الله عنه ليبلغه ماذا يصنع بنو أمية في الناس بالأمصار ، ويطلب علي من عثمان عزلهم فلا يوافق .

وكلما أحس الإمام علي بازدياد انتقادات المؤمنين ، ذكرهم بفضل عثمان رضي الله عنه . فهو إن اختلف مع البعض في كيفية توزيع الأموال ، إلا أنه هو عثمان نفسه الذي كان في طليعة المؤمنين وأحد المهاجرين ، وأكثر الناس إنفاقا على جيوش المسلمين ، وأكثرهم تحريرا للعبيد، وأكثرهم جودا وبرا بالمؤمنين . إنه عثمان صاحب الحياء الذي جعله نفر من أقاربه طريقا إلى الدنيا وزخرفها ، وقد كان هذا الحياء نفسه هو الطريق المستقيم لصاحبه إلى التقوى ومكارم الأخلاق . إنهم إذا مستشارو

السوء حول كل حاكم .. هؤلاء الذين عينهم ، فأخذوا الناس بسياسة الملك العضوض ، فصنع مأساته ونهايته العاجلة بنفسه .

وظهور الفتنة السوداء التى قسمت وفرقت المسلمين بعد أن كانوا يدا واحدة ، الفتنة التى استمر معاوية وأعوانه وأقاربه من بنى أمية في إشعالها ؛ أملا في وصوله إلى الخلافة ، وهو إلى عهد قريب كان مشركا حتى فتح مكة ، ودخل هو وأبوه رأس الشرك أبو سفيان حظيرة الإسلام رهبة وليس عن رغبة . معاوية اليوم يطالب بدم الصحابي الجليل عثمان من صحابي جليل هو : علي رضي الله عنهما ، فيا للعجب !!

* * *

علي بن أبي طالب

لعلنا الآن نقف وجها لوجه مع الإمام علي كرم الله وجهه: الرجل الذي لم تعرف الإنسانية حاكما مثله ، ابتلي عصره بالفتن والاضطرابات والحروب الأهلية.. حاكما حرص على حماية العدل وإقامة الحق ، وتهذيب النفوس ، حاكما اجتمعت فيه كل مقومات الحكم الصالح ، ونبالة القيادة الرشيدة ، وشرف التعامل الإنساني .. ذلكم هو الإمام علي كرم الله وجهه .. الذي خاطبه مربيه ومعلمه المصطفى ﷺ قائلا: «**أنت سيد في الدنيا ، سيد في الآخرة ، من أحبك فقد أحبني ، وحبيبك حبيب الله ، ومن أبغضك أبغضني ، وبغيضك بغيض الله** » .

وقال ﷺ عنه : « **ويل لمن أبغضك من بعدي** » وقال عنه : « **رحم الله عليا .. اللهم أدر الحق معه حيث دار** » ، وقال عنه : « **من اتخذ عليا إماما لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى وتنبأ له** » : «**إن عليا لن يموت في مرض ، ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ**» .

صدقت يا رسول الله ، عليك الصلاة والسلام ، فأي غيظ يتجرعه إنسان يعيش زمانا يقول عنه كرم الله وجهه : « واعلموا رحمكم الله ، إنا في زمان القائل فيه بالحق قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحق ذليل» .

زمن فيه لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم .. وصدقت يا إمام المتقين. فمن نكد هذا الزمان أن ترى خصما لك مثل معاوية بن أبي سفيان ابن آكلة الأكباد القائل عن نفسه: «الدنيا مالت بي وأنا ملت بها ، هي أمي وأنا ابنها» .

حقا .. من نكد هذا الزمان أن يتنازع فيه اثنان ، أولهما : إنسان زهد في أمر دنياه حتى يكسب آخرته ، والثاني: أصلح أمر دنياه بفساد دينه . نعم من نكد هذا الزمان : أن يعيشه الإمام علي وقد نشأ في بيت النبوة تربيه الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين ليتولاه ويعلمه النبي سيد الخلق أجمعين .. مع معاوية وقد نشأ في بيت الشرك حيث تربيه أمه هند بنت عتبة آكلة أكباد المؤمنين ، ليتولاه رأس الكفر أبو سفيان ابن حرب ، فالتربية الأولى تنتج إماما صالحا للمتقين إذا تولى أمر المسلمين فإنه يريدها خلافة تقوم على العدل والحرية والمساواة ، بينما تنتج الأخرى طاغية مختالا فخورا . والتربية الثانية تفرز طاغية إذا تولى أمر المسلمين ، فإنه يريدها ملكا وراثيا عضوضا مستبدا ، يقوم على جماجم وأشلاء ودماء المسلمين وحدهم . هذا هو علي كرم الله وجهه وهذه محنته في التاريخ الإسلامي .

ولهذا ولغيره.. فإن الذين يكتبون عن الإمام علي يتعاطفون معه أشد التعاطف؛ فمثلا : الشرقاوي حين يتناول هذه المادة عن الإمام في مجلدين ، لا يكتفي بأن يكون محاميا بارعا يجتذب قلوب القراء حين يدافع عن أمر يراه مشروعا ، وإنما هو يدخل في رحاب الإمام علي متلبسا به متشكلا بشكله ، حتى يظن القارئ أنه يحيا حياته ويعيش محنته في توحد يدعو إلى الإعجاب . فمثلا حين يسجل للمشكلات والهموم التي واجهها الإمام علي كرم الله وجهه منذ توليه أمر المسلمين يسكب مشاعره في سن قلمه . وأي هم يلقاه من يتولى أمر المؤمنين ، وقتلة ثالث الخلفاء لا يزالون مقيمين بالمدينة متسلطين عليها . أكتب عليه وعلى من يبايعه من المهاجرين والأنصار أن يكونوا مستهدفين لهؤلاء القتلة والذين يحركونهم فئة وراءهم من بني أمية على امتداد الدولة الإسلامية ؟ وأي هم يلقاه الإمام الجديد حيث يعرف أن أغلب من ولاهم عثمان رضي الله عنه يستنكرون خلافته ، ويؤلبون الرعية ضده ، مطالبين بدم الخليفة المقتول من رفيقه وصاحبه الإمام علي ، ليس وفاء للخليفة المقتول ولا كراهية للإمام ، وإنما حرصا على مصالحهم التي أصبحت مهددة . وأي هم يلقاه

إمام يتولى أمر المؤمنين فيرى أهل الثقة وإخوة الجهاد ، وفي مقدمتهم : أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير يتألبون ضده بفعل دس معاوية وأعوانه ويشعلون حرب الجمل التي فيها يختلط الثرى بدماء وأشلاء المؤمنين من الطرفين ولا يتنبهون إلى هذه الفتنة إلا بعد فوات الأوان . وأي هم يلقاه إمام يرى شرور معاوية وأعوانه تزحف وتستشري لتقطع أجزاء من الدولة ، يصلحها بعد ذبح الأطفال وقتل الشيوخ وسبي النساء المؤمنات ، حتى إذا كانوا على أبواب الكوفة يدعوهم الإمام علي للجهاد ، فلا يجد إلا تقاعسا فيخاطبهم : « يا عجب كل العجب.. عجب يميت القلب ، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقهم على حقهم » .. وأي هم يلقاه من يتولى أمر المسلمين ، فيجد نفسه مواجها بعديد من المشكلات مجتمعة .. وأولاها : من الذي قتل عثمان ومن قبله عمر ومن قبلهما أبو بكر الذي مات مسموما ؟ هل هناك يد تفتك برؤوس الدعوة الإسلامية بعد وفاة صاحبها ﷺ ؟ ومشكلة أخرى : هي في عزل الولاة من بني أمية وغيرهم ممن ولاهم عثمان رضي الله عنه فركبوا رقاب الناس وأصابوا ثروات من دماء المسلمين ؟ ومشكلة ثالثة : هي في طلب صحابيين جليلين هما : طلحة والزبير أن يوليهما صاحبهما الإمام علي البصرة والكوفة فلا يستطيع امتثالا لتعاليم النبي ﷺ الذي حذر ممن يطلب ولاية على الناس فلن يكون في خدمة الناس. ومشكلة رابعة : هي في إقرار مبدإ المساواة الذي أهدر مؤخرا ، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، الكل سواء : الأمير كالفقير فكيف يرضى أصحاب السوابق والفضائل من المهاجرين والأنصار . ومشكلة خامسة : هي كيف يقر المبدأ الذي استهل به خلافته يوم بيعته وبغيره لن تكون له خلافة وهو : إقرار فرض أن في أموال الأغنياء حقا للفقراء . لكن هم الهموم الذي كتب على الإمام علي أن يلقاه في معاوية بكل ما انطوت عليه نفسه من مكر ودهاء وحب للدنيا وزخرفها .

إذا .. كان لكل كتاب عن الإمام على كرم الله وجهه فكرة يدور حولها . فمثلا نجد في كتاب الدكتور/ طه حسين(الفتنة الكبرى) أن الفتنة التى تضخمت وتشعبت في عصر على كرم الله وجهه بدأت في عصر عثمان رضى الله عنه ولم تنقض بموت يزيد بن معاوية ، بل استأنفت شدتها وعنفوانها ؛ فعرضت دولة المسلمين لخطوب ليست أقل جسامة من الخطوب التى حدثت قبل ذلك . وتدور فكرة كتاب (عبقرية الإمام) للأستاذ / العقاد حول مفتاح شخصيته ، وهو في آداب الفروسية التى تشتمل على الأنفة التى تأبى أن تسف إلى ما يخجل ويشين ، والمصارحة التى تدعوه أن يقول في العلن ما يقول في السر هو كإمام للمسلمين لم ينس الشرف قط ليغتنم فرصة. ولم يساوره الشك قط في هذا الشرف ، فهو يصنع ما وجب عليه وإن خسر . وأما عبد الرحمن الشرقاوي فإن فكرته البارزة في مجلدي «(على إمام المتقين) لعلها في تبيان الفارق الشاسع بين الإمام على كرم الله وجهه ومعاوية وهو الفارق بين الحق والباطل ، ولعل الشرقاوي يجسد هذا الفارق ؛ حيث يسجل رد الإمام على رضى الله عنه على المتحدثين بدهاء معاوية قائلا : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر منى لكنت أدهى الناس ولكن كل غدرة فجرة ، وكل فجرة كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » . وقد صدق الإمام ؛ فلو أنه هادن معاوية وأقره حتى يأخذ منه البيعة ثم عزله لاستقرت الخلافة بهذه الوسيلة المخادعة ، ولكن كيف للإمام على كرم الله وجهه أن يخالف طبيعته بمخالفته للقاعدة الشرعية : « **لا تجوز ولاية الفاسق**» مستحيل .

من هذه الفروق وغيرها كثير .. تولدت الخلافات واستمرت بين الاثنين ، فلم تستقم بينهما الأمور حتى وإن تخللتها هدنة قصيرة استطاع خلالها الإمام على أن يقوم ببعض الإصلاحات إلى أن كانت النهاية الحزينة بمقتله كرابع للخلفاء الراشدين كما قتل من قبل عمر . وعثمان رضي الله عنهما ، وتنتهي الخلافة الراشدة، ولا تنتهي هذه الفتنة اللعينة .

* * *

الإمام الحسين

منذ أن خرج«خارج» فأذن في الناس : لقد قتل عثمان ثالث الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة ، ومن بعده قتل الإمام على كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين بالكوفة ، ومن بعدهما كان مقتل الحسين بن على بكربلاء ، والفتنة قائمة لا تنتهى ، ولم يتفرق الناس إلا وقد وقعت الواقعة ، وكانت كربلاء كربا وبلاء على المسلمين ، ومحنة استمرت أعواما وقرونا ، وأثارت من الخطوب الجسام ما أثارت ، وأى خطوب بعد سفك ما سفك من الدماء ، وإزهاق ما أزهق في النفوس ، وانتهاك ما انتهك من الحرمات ، وقضى بعد هذه الفتنة على سنة الخلافة الراشدة ، وتمزقت أوصال دولة الإسلام إلى شيع وأحزاب ، وأسس فيها ملك عضوض لا يقوم على الدين والمنفعة العامة ، وإنما يقوم على السياسة والمصلحة الخاصة . وكان يظن مؤسسه معاوية أن هذا الملك يمضى في طريقه وادعا مستقرا في بنى سفيان دهرا طويلا ، ولكنه لم يستقر فيهم إلا ليتحول عنهم في عنف وشدة وغلظة عرضت المسلمين ودولتهم للخطوب المتتالية ، وذلك حين غاب عنهم المثل الأعلى في العدل الذي يملأ الأرض وينشر السلام. والذي تقطعت دونه الرقاب ، قرونا متصلة دون أن يبلغوا منه شيئا حتى استيأسوا من قربه ، ولم يستيأسوا من وقوعه ، فما زالوا يعتقدون أن واحدا منهم سيأتى في يوم من الأيام ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . وهذا واحد من المؤمنين المتطلعين إلى هذا العدل ، إنه الحسين بن على رضى الله عنهما ، الذي كان تجديده في إنقاذ الإسلام من رجعية ، ولكنه قتل لتنتشر الفتنة التي لا تزال إلى اليوم تفرق المسلمين بين سنة وشيعة .

الحسين بن على - رضى الله عنهما - الذي لا يوجد مسلم في العصر القديم أو الحديث يحبه ﷺ ، ولا يقدر كل هذا الحنان الذي يغمر به سبطيه ، وأحب الناس

إليه : الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فبهذا الحنان النبوي الشريف أصبح الحسين في عداد تلك الشخصيات الرمزية التى تتخذ منها الأمم والشعوب عنوانا للمحنة أو الألم أو الفداء ، فهذه الشخصيات محبوبة عند كل فرد ، وموضع عطفه وإشفاقه.. كأنما هذه الشخصيات تمت إليه بصلة القرابة والرحم .. بل وأكثر من ذلك .

ولقد بلغ الإمام الحسين ، مبلغا من المكانة الرمزية ، حتى أوشك بعض واصفيه أن يلحقوا به المعجزات والأساطير ، التي انتهت بانتهاء النبوة من على الأرض .

ولاشك أن مأساة الإمام الحسين .. تكفي وتزيد عن تلك الصور الرمزية التى نسجتها الأجيال المتعاقبة ، وكيف لا يكون ذلك وقد كان ملء السمع والبصر في خلقه وخلقته ، في أدبه وسيرته ، في مبادئه وقيمه ، وإلى جانب ذلك ، فهناك شبه كبير بينه وبين جده ﷺ وأبيه كرم الله وجهه. فقل فيه ما شئت من الصفات الكريمة، والمثل العليا ، والأدب الجم .

لقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من علم وأدب وفروسية ، إلى جانب ما أوتى به من ملكة للخطابة التى تخلب لب من يسمعه : طلاوة لسان ، وحسن بيان ، وغنة صوت ، وجمال إيمان . استمع إليه مثلا في توديع أبي ذر الغفاري حين أخرجه من المدينة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بعد أن طرده من الشام معاوية ابن أبي سفيان : « يا عماه ، قد منعك القوم دنياهم ، ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك ، وما أحوجهم إلى ما منعتهم .. وأسأل الله الصبر ، وأستعيذ به من الجشع والجزع . فإن الصبر من الدين والكرم ، وإن الجشع لا يقدم رزقا ، وإن الجزع لا يؤخر أجلا » .

قال ذلك وهو في الثلاثين من عمره ، فكأنما أودع في هذه الكلمات شعار حياته كاملة ، وخلاصة مبادئه ، منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقها شهيدا في كربلاء .

ولكن كيف يقتل الحسين بيد مسلم ، ويمثل بجثته أبشع تمثيل ، كيف يقتل بيد من سمع الرسول ﷺ وهو يقول : « **هؤلاء هم أهل بيتي ، من أحبهم فقد أحبني ، ومن عاداهم فقد عاداني** » .

إن لذلك قصة ، بل مأساة ومحنة ، لعل أهم أحداثها تبدأ من لحظات تولي «يزيد ابن معاوية» الخلافة بعد أبيه معاوية ، وكما كان الإمام الحسين رضى الله عنه رافضا للخليفة الراحل ، فهو أيضا رافض للخليفة الجديد ، حتى يستدعيه أمير المدينة «الوليد بن عقبة» ، وصاحب بيت المال « مروان بن الحكم » ليعرضا عليه مبايعة يزيد ، فيرفض ، فيصير الحوار عاصفا بين « الطرفين » يستخف فيه به مروان ويعربد حين يقول للإمام الحسين عن البيعة إنها لا تعدو أن تكون كلمة فلنقلها . وهنا يسألهما الحسين : « أتعرفان معنى الكلمة ؟ .. الكلمة فرقان بين نبي وبغي » . وينصرف عنهما غير مبايع .

ويبقى الحسين في المدينة يعظ الناس ، ويوضح لهم أمور دينهم ودنياهم ، حتى يصله كتاب من ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يدعوه فيه إلى التوجه إلى الكوفة بالعراق ، فالناس فيها متشوقون إليه ، ويبايعونه أميرا للمؤمنين ، يطبق شريعة الله التي جاء بها رسوله ﷺ ، ونفذها خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم .

ويعلم يزيد بذلك فيزداد حنقا وغضبا ، ويأمر رجله بالكوفة « ابن زياد » بأن يقضى على كل من يبايع الحسين ، وفي مقدمتهم : مسلم بن عقيل ، وأن يأتيه برأس الحسين نفسه حيا أو ميتا فور وصوله !

وسواء أدرك الإمام الحسين الخطر المحدق به وبأسرته أو لم يدركه ، فإن طبيعته التى ورثها عن أبيه – رضى الله عنهما – كانت تمنعه في كل الأحوال من التردد في أمر قد اتخذه .. ويستعد للرحيل مصحوبا بأسرته ، وآل بيته من النساء والأطفال ، على الرغم من تحذير عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وتأكيده له بغدر من يتوجه إليهم، فيرفض تحذيره ، ويبدأ في الرحيل .

وهناك عند «كربلاء» يتأكد من صدق هذا الصحابي الجليل حين يكتشف أن أنصاره بالكوفة قد خذلوه ، وأن من بقي على عهده قد قتل ، وفي مقدمة هؤلاء القتلى ابن عمه «مسلم بن عقيل» رضي الله عنه .

وفي الجانب الآخر تستعد الكوفة بالغدر والقتل والتنكيل لملاقاة الحسين وآل بيته وشيعته . وتتوالى الأحداث سريعة ، حتى إذا التقى الجمعان تساقط النفر القليل من أنصار الحسين ، حتى لا يبقى إلا الحسين وآل بيته من النساء والأطفال ، فيصرخ في سماء المعركة بأنه الشهيد ابن الشهيد ويتقدم شاهرا سيفه وسط صرخات الأطفال، ونحيب النساء ، ويتكاتف عليه القوم بالمئات ، وتتكالب عليه السيوف ، وتستهدفه النبال والحراب حتى يخر صريعا مضرجا بالدماء ، وليس في جسده الطاهر موضع سليم من الطعان .

ولا تكتفي هذه الأعداد الجبانة المأجورة الظامئة إلى مزيد من دماء الأبرياء بما صنعت بابن بنت رسول الله وبأطفاله ونسائه، وإنما يقبلون على جثته فيجزون رأسها، ليحملوا الرأس الشريف إلى أميرهم الداعر الفاسق «يزيد بن معاوية» في الشام!! .

وهكذا .. يبقى الإمام الحسين على مر القرون : الشهيد ابن الشهيد ، وأبا الشهداء ولا يبقى من جثمانه غير هذا الرأس الطاهر الذي حمله الفجرة إلى كبيرهم الداعر الفاسق يزيد بن معاوية ، ليطوفوا به في عدة أمصار إسلامية حتى يستقر أخيرا في ضريحه المقام بمسجده في القاهرة بالقرب من الأزهر الشريف .

على أنه قد يهون المكان في وجود المكانة .. ومكانة الحسين - كمعنى ورمز - عظيمة خالدة في القلوب والضمائر ، متجسدة راسخة في الأفكار والخواطر ، لأسباب كثيرة ، منها أنه واحد من المجددين في الإسلام ، وآية تجديده : أنه أراد أن ينقذ الإسلام من رجعية مقيتة ، يتنافى معها - في زمانه - تواجد هذا العدل الذي بشر به جده العظيم ، أما كيف كان ذلك ، فإن له قصة أخرى ، تبدأ فصولها منذ أن

لجأ معاوية بن أبي سفيان إلى إيثار ابنه يزيد بولاية العهد من بعده ، واتباعه في ذلك أسلوب القوة ، فكان بهذا أول من سن هذه السنة الرجعية في الإسلام . ولعل أول من زين له ذلك « المغيرة بن شعبة » - وكان لا يقل مكرا ودهاء عن معاوية نفسه - حينما أراد عزله من الكوفة ، فذهب إلى الشام ، وبدلا من أن يقابل معاوية قابل ابنه يزيد وقال له : « إنه وقد ذهب أعيان أصحاب رسول الله وآله وكبراء قريش ، وإنما بقي أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين - يقصد أباه معاوية - أن يعقد لك البيعة ؟ فقال له يزيد : « أوترى ذلك يتم ؟» قال المغيرة : « نعم » .

وهنا أخبر يزيد أباه بذلك . فاستدعى معاوية المغيرة وقال له : « ما يقول يزيد؟» فرد المغيرة : « يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان رضى الله عنه ، وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة » . فقال معاوية وقد أعجبته الفكرة « ومن لي بهذا ؟ » فقال المغيرة : « أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين إلا المصريين فلا يخالفك أحد » .

وهنا يتضح أن المغيرة يعمل لمصلحة خاصة ، هي ضمان بقائه واليا على الكوفة، وإن ألبسه ما ألبسه من ثوب المنفعة العامة .

وطبيعى أن يعيد معاوية المغيرة بن شعبة إلى الكوفة واليا عليها ، طالبا منه أن يمهد لذلك ، وبدأ يحبب الناس في هذا الأمر ، حتى أجابه إليه بعض أنصار بنى أمية، فأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية ، فزينوا له البيعة ليزيد ، حتى يقوى عزمه عليها ، وكان نتيجة ذلك أن أرسل إلى عامله بالبصرة زياد طالبا منه أن يمهد لذلك ، فأرسل إليه زياد ينصحه أن يتريث في هذا الأمر لعدم استكمال شروطه في يزيد. فعمل معاوية بنصيحة زياد ، وأقلع عن هذا الأمر .. ثقة في زياد الذي كان يعتبره ساعده الأيمن ، ولا يحب أن يخالفه .

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم - عامله على المدينة المنورة - كتابا يعزم فيه على البيعة لابنه يزيد ، فقرأه مروان ، ثم قرأه على الناس في المسجد فهاج القوم وماجوا ، وقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : وما الخيار أردتم لأمة محمد إنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل خلفه هرقل ! وقام الحسين ابن علي فأنكر ذلك ، ومثله فعل عبد الله بن الزبير .

فلما بلغ معاوية ذلك سار إلى المدينة والتقى بالحسين بن علي ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وحدثهم في موضوع بيعة يزيد ، فقال له عبد الله ابن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال : اصنع كما صنع رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدا ، فارتضى الناس أبا بكر .. فرد معاوية : ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأضاف : الاختلاف ، فقالوا له : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ، ليس من بني أمية فاستخلفه ، أو إن شئت فاصنع كما صنع عمر ابن الخطاب ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ، ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه: فقال معاوية لهم : هل عندكم غير هذا ؟ قالوا : لا ، فقال لهم مهددا . فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم ، وإنه قد أعذر من أنذر ، ثم أخبرهم صراحة بأنه سيتجمع الناس لهذا الأمر ، وهددهم بالقتل إن أظهروا خلافا له .

ثم جمع الناس ، فقال لهم مشيرا إلى هؤلاء الثلاثة : الحسين بن علي ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمر : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يؤخذ رأي دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وأنهم قد رضوا أو بايعوا ليزيد ، فبايعوه - أنتم - على اسم الله . فبايع الناس ، وكانوا ينتظرون بيعة هؤلاء الثلاثة أولا ، حتى إذا التقوا بهم قالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم ؟ ورد الثلاثة : والله ما فعلنا ، فقالوا لهم : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟ فقالوا : كادنا - أي صنع مكيدة - وهذا جانب من مكر معاوية ودهائه .

والحق أن هؤلاء الثلاثة - وهم بالفعل من خيرة سادة قريش - كان لهم عذرهم في هذا السكوت على هذه المكيدة التى دبرها معاوية لأسباب كثيرة ليس منها الخوف من القتل . فمثل هؤلاء لا يخافون القتل . في مقدمة هذه الأسباب : اجتماع كلمة المسلمين على معاوية بن أبي سفيان أميرا لهم في ذلك الوقت ، وهم ثلاثة لا يصح ولا يجوز لهم الخروج على ذلك الإجماع ، وربما كان معاوية يعرف ذلك مقدما ، ففعل ما فعل مطمئنا .

غير أنه من ناحية أخرى ، لا يستطيع منصف أن يبرئ معاوية وصنعه ، فقد أضاف إلى رجعيته في تحكيم السيف في خلافة على بن أبي طالب ، رجعية أخرى في أخذ الناس بالقوة في بيعة ابنه يزيد . وقد رضي الناس في ظاهر الأمر لقيام سلطانه وكراهيتهم شق عصا الطاعة .

فرأى الحسين أن ينتظر إلى أن يذهب ما يخشاه الناس من ذلك ؛ لعلمه أنهم عند موت معاوية لن يدينوا ليزيد ، ولن يفوا بهذه البيعة التي أخذت منهم بسلطان أبيه وحيلته لأنها بيعة باطلة .

ومات معاوية ، وكان الوالي على المدينة المنورة «الوليد بن عتبة» ، فأرسل إليه يزيد طالبا منه أن يأخذ البيعة له من الحسين، فلما طلب الوليد من الحسين هذه البيعة. قال له : « أما البيعة فإن مثلي لا يعطي بيعته سرا ولا أراك تجتزئ بها مني سرا دون أن تظهرها على الناس علانية ، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمرا واحدا » .

ولم يكن الحسين يريد البيعة ليزيد ، ولكنها حيلة مشروعة لجأ إليها ليتمكن من القيام بما عزم عليه من العمل للقضاء على هذه الرجعية التي ابتدعها معاوية في الإسلام ، وتخليص الناس من عسف بني أمية واستبدادهم ، وإقامة حكم الشورى الذي يراعي مصالح الرعية قبل مصلحة الراعي ، ويسير على العهد الذي كان عليه في أيام الخلافة الراشدة .

ونفذ الحسين ما أراد ، رافضا البيعة ليزيد ، وخرج من المدينة إلى مكة ، وكاتب شيعته بالكوفة ، فكتبوا إليه كتابا جاء فيه : « إنه ليس علينا إمام فأقدم علينا ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى . فإن النعمان بن بشر في قصر الإمارة ، ولسنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه في عيد ، ولو قد بلغنا مخرجك ، أخرجناه من الكوفة وألحقناه بيزيد في الشام » .

فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليأخذ له بيعتهم ، فلما قدم عليهم اجتمعوا عليه ، وبايعه منهم اثنا عشر ألفا . وهنا قام رجل ممن يؤيد يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشر فقال له : « إنك ضعيف أو مستضعف ، قد فسد البلد » فقال له النعمان : « لأن أكون ضعيفا في طاعة الله أحب إلي من أن أكون قويا في معصيته ، ما كنت لأهتك سترا » .

وعلم يزيد بذلك ، فعزل النعمان بن بشر عن الكوفة ، وأضافها إلى عبيد الله ابن زياد ، واليه على البصرة ، وأمره أن يطلب مسلم بن عقيل ويبحث عنه ، فإن ظفر به قتله . ورسم له حيلة من الحيل التي تعودها بنو أمية لبلوغ ما يريدون ، حتى ولو كان بغير وجه حق ، المهم أن يبلغوه .

كانت الحيلة أن يأتي عبيد الله بن زياد في وسط بعض أهل البصرة إلى الكوفة ملثما ، حتى لا يعرف شخصيته أحد ، فكان لا يمر على أحد فيسلم عليه إلا رد عليه مرحبا وقائلا : عليك السلام يا ابن بنت رسول الله . وقد ظنوا أنه الحسين بن على قد وصل لتوه من المدينة . واستمر عبيد الله بن زياد على هذا الحال ، حتى دخل قصر الإمارة ، وجعل يبحث عن مسلم بن عقيل حتى وجده وقتله .

وكان مسلم بن عقيل قبل قتله ، قد أرسل إلى الحسين يطلب منه سرعة الحضور إلى الكوفة ، فتجهز الحسين في نحو ثمانين رجلا من أهله وأربعين فارسا ونحو مائة رجل من شيعته ، وسار يقصد الكوفة التي تنتظره، والآلاف التي ترحب بمقدمه كما

أبلغه عقيل.. غير أن عقيل بن مسلم قد قتل ، والأحداث قد تطورت بشكل ليس في صالح الحسين الذي توجه إلى الكوفة دون أن يعرف هذه التطورات. أما في الجانب الآخر فقد أعد عبيد الله بن زياد جيشا على رأسه «عمر بن سعد بن أبي وقاص» - الذي كان داهية في فن الحرب والقتال ، والتقى الجمعان : الحسين في هذه القلة القليلة من الرجال والعتاد ، وجيش ابن زياد بقيادته المدربة ، ورجاله الذين يعدون بعشرات الآلاف ، وعتادهم .. وكانت النتيجة المتوقعة أن يقتل الحسين .

ومن هنا .. حق القول بأن الحسين راح شهيدا في سبيل القضاء على الرجعية السياسية التي أرادها معاوية وابنه يزيد ، وبنو أمية بعد ذلك للإسلام . وله في ذلك أجر الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الخير للناس ، وفي سبيل المصلحة العامة ، ولا ينقص من أجره في ذلك تقاعس من استشهد في سبيلهم عن نصرته ؛ لأن الحق لا ينقص من قدره تهاون الناس في نصرة القائمين به .

ومن أنصار هذه الرجعية من يرى أن الحسين قد قتل بسيف جده عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأنه خرج على إمام من أئمة المسلمين . وهذا قول مردود من أساسه ، وقد رد عليه المفكر الإسلامي الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» في ثلاث نقاط:

أولاها : أن البيعة ليزيد كانت باطلة . كما سبق أن رأينا من حيل .

ثانيتها : أن يزيد لم يجمع الناس على بيعته بعد موت أبيه ، بل كان ممن خرج عليه أهل المدينة ، وقد طردوا عامله منها فاستبدله بمسلم بن عتبة ، الذي حاصر المدينة حتى استسلمت له ، فأباحها لجيشه ثلاثة أيام قضاها في القتل والسلب والنهب . وكان ممن خرج عليه أهل مكة ، إذ دعا فيها عبد الله ابن الزبير لنفسه أميرا عليها، فسار إليه مسلم بن عتبة ، وقد مات في الطريق، فقام مكانه الحصين بن نمير ، ودار قتال بينه وبين عبد الله بن الزبير ، استمر

إلى ما بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وهذا يعني : أن مكة ومن قبلها المدينة لم تجمع على بيعة يزيد .

وثالثتها : أن الحسين بن علي لم يقم بعمله مجازفة ، أو بدون تلمس الطريق إليه ، فقد أرسل أولا مسلم بن عقيل إلى أهل العراق . فقام بالبيعة له قبل أن يسير إليهم ، ثم أرسل إليه أن بالعراق قوة تمكنه من أن يصل بها إلى غايته من القضاء على تلك الرجعية الجاهلية .. فسار إليهم على هذا الأساس ، ولو أنهم صدقوا وقاموا معه لوصل إلى غرضه ، وذهب أمر يزيد الذي يحتج به عليه ، فلا يكون عليه في ذلك أية شائبة ، وإنما دمه في عنق يزيد أولا ، وفي عنق من دعاه من أهل العراق ، ثم تخلى عنه ثانيا .

وعلى هذا .. فقد عد مفكرو الإسلام الحسين رضى الله عنه من مجددي القرن الأول الهجري ذلك ؛ لأنه قد نفذ بنظرته إلى المستقبل ، فأدرك أن ما يفعله معاوية والأمويون من بعده ، إن هو إلا رجعية مقيتة ، يخالف ما قام به الإسلام من مبادئ وسياسات أساسها الشورى في اختيار أمير المؤمنين ، لا أن تكون الخلافة ملكا يتوارثه الأبناء جيلا بعد جيل ، فليس الحسين يحرض على الخلافة لمأرب أو هدف دنيوي أو معنوي - فيكفيه شرفا أن يكون ابن بنت رسول الله ، وابن الإمام على كرم الله وجهه ، وهى ميزات ليس لها مثيل - بقدر ما هو يحرص على استمرار مبادئ الإسلام وقيمه ، وأولها الشورى .

* * *

السيدة زينب

تعتبر السيدة زينب من : مجددي القرن الأول الهجري ؛ حيث توفيت عام ٦٣هـ واعتبارها من المجددين في الإسلام أسوة بالرجال ؛ لما لها من مآثر كثيرة تجعلها تقف إلى جانب كبار العلماء ، ليس لهذا فحسب بل لكونها حفيدة النبي ﷺ ، وكريمة الإمام علي كرم الله وجهه وشقيقة الحسن والحسين رضى الله عنهم جميعا ، ولأنها كانت عند أهل العزم والتصميم : أم العزائم ، وعند أهل الجود والكرم : أم هاشم ، وعند أهل مصر والسودان : الطاهرة .. كان يرجع إليها الأئمة الكبار - ومنهم أبوها على وأخواها الحسن والحسين - في الرأي والمشورة ، فسميت : صاحبة الشورى ، وكانت دارها في المدينة المنورة ملتقى الضعفاء ، واسمها : نداء المحتاجين ، فلقبت بأم العواجز ، وتحول بيتها في مصر إلى مقر يعقد فيه الوالي لقاءاته بالرعية واجتماعاته مع رجاله تحت إشرافها ، فعرفت برئيسة الديوان . وكانت في ساحة الوغى وفوق أعواد المنابر بليغة فصيحة ، تسيطر على المشاعر والألباب ، فوصفت بأنها سيدة البيان .

تلك هى السيدة زينب ، حفيدة الرسول ﷺ ، من ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، أشرف نساء الأرض حسبا ونسبا ، وابنة الإمام علي كرم الله وجهه الذي تربى في أحضان النبوة ، فاقتبس منها النور والهدى ، فبقي متصديا لنشر العلم والفتيا ، حتى كان يقول : « سلوني .. سلوني عن كتاب الله تعالى ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم : أنزلت بالليل أم بالنهار » . الإمام علي الذي وصفه الرسول الأعظم لابنته الزهراء عند زواجها بقوله : « **فوالله لقد أنكحتك**- أي : زوجتك - **أكثرهم**

علما ، وأفضلهم حلما وأولهم سلما » . والشقيقة الصغرى للسبطين : الحسن والحسين رضى الله عنهما اللذين كانا أقرب أهل الأرض إلى قلب جدهما الرسول الأعظم ، واللذين أوصى بمحبتهما ، وجعل محبتهما من محبته عليه الصلاة والسلام .

وهكذا .. نجد أنه إن كان في واحدة من النساء فضيلة ، فقد تجمعت للسيدة زينب رضي الله عنها الكثير من الفضائل .. ففيها : وفاء وصدق ، صفاء ونقاء ، شجاعة وإقدام ، إباء وشمم ، علم وبلاغة ، عبادة وتقوى ، عفة وزهد ، وإذا تيسرت بطولة من البطولات لواحدة من النساء فقد تجمعت بطولات متعددة في السيدة زينب ، ومنها : الإيمان بالمبدأ ، وعلو الهمة ، واحتمال إنكار الذات ، والجهاد في سبيل الله وقول الحق ، والتضحية والفداء .

هل نحن في حاجة إلى مزيد ؟ ربما .. وأول ما يستوقفنا من سيرتها - مسترشدين بما جرت به الأقلام : قديما وحديثا - ميلادها ، حيث ولدت بالمدينة المنورة بعد أخويها : الحسن والحسين ، في شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة .. وعلى هذا فقد أدركت من حياة جدها الرسول الأعظم خمس سنوات .. لقيت خلالها من الجد كل عطف وحب وحنان ، ومن الأب والأم كل رعاية واهتمام ، حتى تحقق لها مبكرا قبسات النبوة من جانب ، ونور الحكمة من جانب آخر ، فورثت عن الجد الرسول الأعظم ما لا يحصى ولا يعد من الفضائل ، ومن الأم فاطمة الزهراء التقى والعفاف ، الطهارة والهدى . وعن الأب الإمام علي الفصاحة والبلاغة ، العلم والإيمان ، وعن الشقيقين السبطين التضحية والفداء ، وإنكار الذات، والإيمان بالمبدأ .. ذرية كريمة ، بعضها من بعض .

سماها جدها الرسول الأعظم باسم ابنته زينب ، التي كانت قد توفيت قبل ذلك بقليل ، وتربت كأخويها الحسن والحسين في حجر النبوة .. فتفتحت كرامتها طفلة صغيرة على أحداث جليلة ، ورجال عظماء ، ينشئون خير أمة أخرجت للناس.

لكن هـذه الحياة العامـرة بنـور العلم والإيمان ، المزدحمـة بالأحداث والأعـمال لم تدم .. فقد حدث أمر جلل هز الأمة من أقصاها إلى أقصاها . وهل هنـاك حـدث أكثر جللا من وفاة جدها النبي ﷺ ، لتلحق به أمها الزهراء بأقل من سنة ، فيـسيطر عليها حزن يملك كل أقطار نفسها ، لكنه يجعلها أنـضج إدراكـا ، وأرهـف حـسا ، وأكبر سنا ، وكيف لا ؟ وقد كان عليها أن تعمل بوصية الأم الحبيبة وهي على فراش الموت ، بأن تكون لأخويها الحسن والحسين أما ، وللبيت راعية ، حتى وإن أعوزتهـا التجربة في هذه وتلك .. وهكذا تختارها الأقدار لتحمل الأعباء والمسئوليات وهي لم تزل في عمر الورد .. حتى إذا شبت وجاوزت مرحلة الصبا إلى الشباب يطلبهـا ابـن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب للزواج ، ويوافق الأب في غير تـردد ، وتـرضى البنت في غير نقاش ، وهل يكون هناك تردد أو نقاش في أمر عبد الله بن جعفر ، أول مولود ذكر في الإسلام . وأصغر من بايع النبـي ﷺ وقبلـت بيعتـه ، إذ كـان لم يبلـغ العاشرة ، حتى قـال النبي ﷺ عنه وعن أبيه جعفر : « **اللهم اخلف جعفرا في أهلـه ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه** » .

وكان يلقب بين المؤمنين بقطب السخاء ، حتى إنه يروى عن جـوده وكرمـه أن امرأة سألته شيئا فأعطاها أضعاف ما طلبت ، فقيل له : « يا عبد الله ، إنها لا تعرفك، وكان يرضيها منك اليسير » .. فقال : « إن كان يرضيها مني اليسير فإني لا أحـب إلا الكثير ، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي » .. مـن هـذا الرجـل المناسـب يـتم زواج السيدة زينب ، لا لتنتقل إلى بيت زوجها الحالي ، ولكن لتبقى في بيـت أبيهـا في المدينة المنورة ، وتنتقل معه إلى الكوفة ، حيث ولي أمر المسلمين ليعيشا في مقر الخلافة في رعاية الأب أمير المـؤمنين ، حيـث كـان يرجـع إليهـا ، ويـؤمن بـصواب رأيهـا ، وصدق حدسها .. وتنجب «زينب» لابن عمها ذرية صالحة لم يبق منهم غير اثنـين : «علي» ، و«أم كلثوم» .

وإذا كانت هذه هي النشأة في بيت الجد والأب والزوج ، حياة يظلها الطهر والإيمان ، فطبيعي أن تنصرف السيدة زينب إلى العبادة . فنراها صورة جليلة لمن قاما يتربيتها ، ونموذجا لحياة فاضلة كريمة .. ونراها صوامة قوامة ، قانتة تائبة ، تقضي أكثر ليلها متهجدة .. تالية للقرآن ، مبتهلة ، داعية خاشعة ، تردد هذا الدعاء الذي لقنه إياها الجد ، الرسول الأعظم : « **سبحان من تعطف بالمجد وتكرم ، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له جل جلاله ، سبحان من أحصى كل شيء مددا لعلمه وإرادته وقدرته ، سبحان ذي العزة والمن والنعم ، سبحان ذي القدرة والجود والكرم ، اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ... باسمك العظيم، وكلماتك التامات ، أن ترحمني يا أرحم الراحمين** » .

وعن أبيها الإمام علي كرم الله وجهه ترث هذا الدعاء : « يا عماد من لا عماد له، وذخر من لا ذخر له، يا سند من لا سند له، يا من لم يكن له مثله قبل ولا بعد، ولا كفو ، ولا ند ، ولا نهاية ولا حد ، بحرمة اسمك ، ارحمني برحمتك يا أرحم الراحمين ».

ولم تصرفها عبادتها ونسكها وابتهالاتها وخشوعها عن التفكير في آيات الله في خلقه ، أو تتلقى ما يسمح به زمانها من علم وفكر ، وكيف لا تهتم بالعلم والتفكير ، وقد سمعت عن مكانة العقل والعلم مما نقل عن جدها الرسول الأعظم حيث قال : «**العلماء ورثة الأنبياء**» ، وقال : « **لموت قبيلة أيسر من موت عالم** » . وسمعت من أبيها قوله: « ثلمة[1] الدين.. موت العلماء ». وقبل ذلك سمعت قول الحق تعالى: ﴿ **هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ** ﴾[2] .. هذا إلى جانب أنها تربت في مدينة العلم النبوي ، وصحبت أباها الإمام إلى يوم استشهاده ، فنهلت من علمه

(1) الثلمة (بضم الثاء : الشيء الذي به خلل) .

(2) الزمر : ٩ .

الكثير ، وعاشت حينا من الدهر مع أخويها : الحسن والحسين ، فنهلت منهما الكثير أيضا ، ولذلك خاطبها ابن شقيقها على زين العابدين بن الحسين ، رضي الله عنهما : « أنت يا عمتاه ، بحمد الله عالمة غير معلمة ، وفهمة غير مفهمة » . يقصد بذلك كما يقول أحد مؤرخيها الأستاذ «علي أحمد شلبي» في كتابه عنها : « إن علمها هو مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع ، وأفيض عليها إلهاما » .

ولذلك .. فقد روت الحديث عن أمها ، وعن أبيها ، وعن أخويها .. كما روت عن أم سلمة ، وأم هانئ.. ولذلك روى عنها ابن عباس، وعلي زين العابدين، وعبد الله بن جعفر ، وفاطمة النبوية رضي الله عنهم أجمعين .

ومما سجله عنها مؤرخوها للدلالة على كثرة علمها وتبحرها هذه القصة التي تروى بأن أخويها : الحسن والحسين كانا يتذاكران ما سمعاه من جدهما النبي ﷺ من علم ، فدخلت عليهما السيدة زينب مستأذنة وملقية عليهما السلام ، وجلست معهما وقالت : « سمعتكما تقولان إن جدي ﷺ كان يقول : « **الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله.. ألا وهي القلب** »[1] اسمعا يا حسن ويا حسين، إن جدكما رسول الله ﷺ ذكر ثلاث درجات في الدين : الحلال ، والحرام ، والمشتبه .. أما الحلال فهو ما أحله الله تعالى ، بأن جاء القرآن الكريم بحله ، وبينه الرسول ﷺ في بيانه الواضح ، كحل الشراء والبيع ، وإقامة الصلاة في أوقاتها ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، وترك الكذب ، والنفاق ، والخيانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(1) البخاري/ باب الإيمان/ 29/ بيوع/ 3 .

وأما الحرام فهو ما حرمه القرآن الكريم ، وهو على النقيض من الحلال .. ويبقى المشتبه ، وهو الشيء الذي ليس بالحلال ولا بالحرام .. والمؤمن الذي يريد لنفسه السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة ، ما عليه إلا أن يؤدي ما أوجبه عليه رب العالمين ، ويسير في طريق القرآن الكريم ، ويقتدي بالنبي الكريم ، ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه وأصبح دينه نقيا . وأما من سار في طريق الشبهات فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرمه الله . وإن لكل ملك حمى بجوار ملكه ، وحمى ملك الملوك محارمه ، ولقد قال النبي ﷺ : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس** » ، وإن الله تعالى أودع في الإنسان مضغة وجوهرة ، إذا صلحت فإن الجسد كله يكون صالحا نقيا ، وفي القلب ، فإذا كان سليما فإن صاحبه يكون يقظا لأمور دينه ومبادئ شريعته . يرى السعادة كلها في الاستقامة على هدي القرآن والسنة ، ومن سلك هذا السبيل يكون يوم القيامة من الفائزين . إن حياتنا في الدنيا مرحلة من المراحل التى توصل الإنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وليس بعد الموت عقاب ، ولا بعد الدنيا إلا الجنة أو النار ... » .

وما إن انتهت من حديثها ، حتى قال الإمام الحسن : « أنعم بك يا هاشمية .. حقا إنك من شجرة النبوة المباركة ، ومن معدن الرسالة الكريمة » .

وأما عن زهدها – رضي الله عنها – فقد كانت مضرب الأمثال في ذلك ، على الرغم من غنى زوجها وثرائه ، ولعلها في ذلك كانت تلتزم بالحكمة القائلة بأن الزاهد من يحب خالقه ويبغض ما يبغض خالقه، ويتحرج من حلال الدنيا ولا يلتفت إلى حرامها .. أو بحديث جدها الرسول الأعظم : « **إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين وزهده في الدنيا ، وبصره عيوبه** » . وقد رأت ما عليه أمها الزهراء ، التي كانت تفترش حصيرا من سعف النخيل لنومها ، والتي كانت تلبس الخشن من وبر الإبل ، وتطحن الشعير بيدها حتى تدمى ، وتعجن وتخبز ، وتقوم بعمل البيت كله في غير كلل .

وقد رأت أيضا ما كان عليه أبوها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كان يرقع مدرعته - أي : ثيابه عند الخياط حتى أحصى فيها سبعين رقعة ، حتى قال : «والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها » . ولم يكن لديه يوم بويع بالخلافة غير حصير صغير كان يجلس عليه مفضلا الآخرة على الدنيا .. فلا عجب والأمر كذلك أن تكون السيدة زينب زاهدة ، وأن تكون مثالا ونموذجا لهذا الزهد ، وأن يصل الزهد عندها حدا جعلها تزهد في المال والولد والبيت والزوج ، وراحة البال ، وهدوء النفس، لتلحق بأخيها الإمام الحسين مؤثرة الآخرة على الدنيا، ساعية إلى الجهاد في سبيل نصرة الحق ، ولسان حالها يقول : « الآخرة خير وأبقى » .

ويضاف إلى خصلة الزهد عندها خصلة أخرى هي: الصبر على المكاره، ولعلها ورثت هذه الخصلة عن جدها الرسول الأعظم ، الذي بلغ من صبره على مكاره قومه أن خاطبه القرآن الكريم : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1] . ها هي ذي حفيدته يصيبها من أحداث الزمان ما لو أصاب الجبال الرواسي لتضعضعت جوانبها ، وتصدعت أركانها من الهول والقسوة، إلا أنها قابلت كل ذلك بقلب مطمئن ، ممتثلة لأمر الله تعالى ، مؤمنة بقوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[2] . أو لحديث جدها الرسول الأعظم حيث قال : « **الإيمان شطران : شطر صبر ، وشطر شكر** » .

كانت بداية صبرها على المكاره حين فتحت عينيها بفقدان أحب الأحباب : الجد والأم ، حتى إذا قطعت من الزمن سنوات تفجع باستشهاد أبيها الإمام وهو على قمة الدولة الإسلامية .. وتتوالى المآسي والنكبات والكوارث بمرور الأيام ،

(1) الكهف : ٦ .
(2) البقرة : ١٧٧ .

بصنيعة معاوية وأعوانه ، حتى يكون من صنيعته تدبير موت شقيقها الحسن رضى الله عنه مسموما على يد زوجته «الجعدة» اللعينة التي تواطأت مع ابن أبي سفيان ، وتختتم سنوات حياتها بمأساة كربلاء ، يوم شاهدت بعينها استشهاد الشقيق والابن وابن العم وابن الشقيق من خيرة رجال المسلمين .

حقا .. إذا كانت كربلاء كربا وبلاء على المسلمين عامة ، فقد كانت أشد كربا وأقسى بلاء على السيدة زينب خاصة . ففي كربلاء قتل لها في يوم واحد شقيقها الإمام الحسين ، وستة من إخوتها لأبيها هم : « العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد ، وأبو بكر ، وثلاثة من أبناء شقيقها الحسين ، وقيل إنه قتل لها ولدان من أبنائها .. وبقية أسرة أبيها من الرجال ، ولم يبق سوى ابن شقيقها «علي زين العابدين بن الحسين» الذي أنقذه مرضه من الموت .. يضاف إلى هؤلاء من استشهد من قبل في الأيام الماضية ، وفي مقدمتهم ابن عمها مسلم بن عقيل بن أبي طالب على أيدي زبانية يزيد بن معاوية » .

وعلى الرغم مما حدث يوم كربلاء الذي كان فادحا وأليما ، فإن السيدة زينب كانت مثالا للصبر والتضحية والفداء ، بل والثبات والشجاعة والإقدام ، حيث كانت هي السيدة الرائدة يوم كربلاء ، فكانت تواسى المظلوم ، وتسهر على المريض ، وتضمد جراح المصاب ، وتسقي العطشى ، وتستثير همم المجاهدين . وننظر إلى موقفها في ذلك اليوم ، حيث ترى ابن شقيقها علي زين العابدين ، وهو الوحيد الذي بقي من الرجال حين عظم الأمر عليه ، واشتد بعد استشهاد أبيه وإخوته وأبناء عمومته ، هنا تقول له عمته السيدة زينب في ثبات نادر : « مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي ؟! والله إن هذا لعهد من الله لجدك وأبيك ، إنه أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم معروفون في أهل السماوات ، أنهم يحملون ويجمعون هذه الأشلاء المقطعة ، والجسوم المضرجة بالدماء فيدارونها ، وينصبون علما لقبر أبيك الشهيد لا يمحى رسمه ، ولا أثره

ولا يزداد إلا علوا على مر الأيام وكر الليالي .. ويتحدث أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وطمسه ، فلا يزداد إلا ظهورا » .

ولننظر إليها وهي تلقي نظرة أخيرة على الأشلاء المقطعة لشقيقها الإمام الحسين ، وكيف اختلطت دماؤه الطاهرة بالرمال ، وفي الوقت نفسه تحين منها نظرة عابرة إلى ما بقي على قيد الحياة من آل البيت فلا تجد إلا النساء والأطفال ، وهنا يعلو صوتها حتى لكأنه يشق عنان السماء من قوة بيان تأثيره : « يا محمدا ، صلى عليك مليك السماء .. هذا حسين بالعراء مقطع الأعضاء والأجزاء ، وبناتك أصبحوا سبايا.. إلى الله المشتكى ، وإلى محمد المصطفى ، وإلى علي المرتضى وإلى فاطمة الزهراء وإلى حمزة سيد الشهداء .. يا أصحاب محمد ، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا، وهذا حسين مجزوز الرأس من القفا ، مسلوب العمامة والرداء بأبي من أضحى معسكره يوم الاثنين منها ، بأبي من لا غائب فيرجى ، ولا جريح فيداوى ، بأبي من نفسي له الفداء ، بأبي المهموم حتى قضى ، بأبي العطشان حتى مضى ، بأبي من شبيه يقطر بالدماء ، بأبي من كان جده المصطفى » .

ومن كربلاء يسير الموكب الحزين إلى الكوفة . والغريب أن يخرج أهلها لاستقبال أبناء علي كرم الله وجهه ، الذين خذلوه من قبل ، والأغرب أن يقدم أهلها الطعام والشراب لأفراد هذا الموكب الذي قتل رجاله ، وعلى رأسهم الإمام الحسين، فتبادرهم السيدة فاطمة النبوية قائلة : « يا أهل الكوفة ، إن الصدقة علينا حرام » . ذلك لأن آل البيت لا تجوز عليهم الصدقات .. وتومئ السيدة زينب موافقة ابنة شقيقها طالبة من يقدم ذلك بالامتناع . والأغرب من ذلك أن تأخذهم دهشة ومفاجأة .. حيث يرون بنات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يدخلن الكوفة غبر عفر ، سبايا وأسرى .. فتنعقد منهم الألسنة خشية من جلال الموقف . متناسين متجاهلين تقاعسهم أيام أن حشد الطاغية يزيد ورجله المتعطش للدماء ابن زياد . وهنا تقف السيدة زينب شامخة الوجه منتصبة القامة ، تكشف ما جبل عليه أهل

الكوفة من نفاق: « الحمد لله، والصلاة والسلام على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار، أما بعد ؛ يا أهل الكوفة ، يا أهل الخداع والغدر ، أتبكون اليوم ؟ فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الرنة ، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذ من أيمانها دخلا مكرا بينكم ، ألا أهل فيكم إلا الصلف (التكبر) والكذب، والشنف والتباغض، وملق الإماء ، وعجز الأعداء » . أتبكون وتنتحبون؟ إي والله ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبت بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل أبدا ، فتعسا لكم وسحقا ، فلقد خاب السعي ، وتبت الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ... ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كيد لرسول الله نويتم ، وأي كريهة له أبرزتم ، وأي دم له سفكتم ، وأي حرمة له انتهكتم .. لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .... » .

وطبيعي أن يتأثر كل من سمع كلمتها ، التي كشفت الكثير ، حيث أدركوا فداحة هذا الحدث الذي تحاسبهم عليه الأجيال .. حيث تركوا أبناء رسول الله لهذه الطغمة الباغية تقتلهم وتمثل بجثثهم وتسبي نساءهم ، وتسوق أطفالهم .. حدث هذا لأن أهل الكوفة خذلوهم .

ويتكرر هذا الموقف العصيب ؛ حيث يكون الموكب عند أمير الكوفة عبيد الله ابن زياد .. اليد الباطشة ليزيد بن معاوية ، حيث استغل الأخير كراهيته للإمام الحسين ورغبته في أن يقدم لأمير المؤمنين ما يثبت أقدامه في الكوفة .. وها هي ذي السيدة زينب تلتقي وجها لوجه مع قاتل شقيقها الحاقد عليه ابن زياد .. الذي يبتدرها قائلا : « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وكذب أحدوثتكم » . فترد عليه السيدة زينب رضى الله عنها في ثبات وجلد : « الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه ﷺ ، وطهرنا من الرجس تطهيرا .. إنما يفتضح الفاجر ، ويكذب الفاسق وهو غيرنا » . ويرد ابن زياد: كيف رأيت صنع الله في بنيك وأخيك ؟ وترد السيدة زينب : ما رأيت

إلا خيرا .. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم. فانظر كيف أنت يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة . وهنا يشتد حنقه وغيظه حتى لا يستطيع السيطرة على نفسه أو مشاعره ، فيقول متشفيا : لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة ، والمردة من أهل بيتك ! فقالت له : لعمري ، لقد قتلت كهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي . فإن كان في هذا شفاؤك فلقد اشتفيت » .

ويتكرر هذا الموقف في مجلس يزيد بن معاوية أمير المؤمنين .. بعد انتقال الموكب إلى مقر الخلافة بالشام .. وقد جيء برأس الإمام الحسين رضي الله عنه ، ووضع بين يديه في إناء .. ليوجه إليه الحديث فيضرب جنبيه بكلتا يديه متشفيا وقائلا :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

فترد عليه السيدة زينب : أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض ، وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى ، إن بنا هوانا على الله ، وبك كرامة، وإن هذا لعظيم خطرك عنده فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك ، تضرب أصدريك فرحا ، وتنفض مذوريك مرحا ؟! أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا ، هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ؟! ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء .. فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا تدحض عنك عارها . وهل رأيك إلا فند ، وأيامك إلا مدد ، وجمعك إلا تبدد يوم ينادي المنادي .. ألا لعنة الله على الظالمين . ثم ترد عليه ببيت من الشعر قائلة :

لأ هلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

ولم يستطع الطاغية «يزيد» أن يقاطعها برغم ما فيه من جبروت وقسوة، وما فيه من سلطان وهيبة .. بل ظل مشدوها ، حيث افتضح أمره ولم يجد ما يقوله سوى :

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

وهكذا كانت السيدة زينب رضي الله عنها أول سيدة في الإسلام شاءت لها الأقدار أن تقوم بهذا الدور السياسي على مسرح الأحداث .. وهي سيدة جريحة مطحونة من هول المأساة ، وهكذا .. أصبح موقف السيدة زينب وقوة تعبيرها عنه.. جعل من كربلاء مأساة دامية على مر الزمن .. وتوالي الأجيال .

وقد يسأل سائل : كيف كانت هذه السيدة – وهي المرأة العربية التي لم تخرج من البادية – على هذه الصورة من رباطة الجأش ، وقوة العزيمة .. وفصاحة اللسان، وقوة البيان ؟!

إن لذلك أسبابا وأسبابا .. منها ما تتمتع به من مكانة فريدة ، وينبع ذلك من نسبها وحسبها وبيئتها .. ومنها ما عرف عنها أيضا من حب للعلم والمعرفة ، وكيف لا وقد رأينا ثقافتها من أحاديثها ومناقشاتها للملوك والأمراء ، وهي في أسوأ الظروف وأقسى الأحوال .

وهناك أسباب جعلت السيدة زينب رضي الله عنها محورا لهذه المأساة الدامية ، وخير معبر عن وقائعها ، الأمر الذي جعل كل المصادر التي تناولت سيرتها أو سيرة شقيقها الإمام الحسين ، لا تخرج في مدتها عما قالته السيدة زينب كمصدر موثوق به .

ولعل موقفها هذا جعل يزيد نفسه يتردد ويضعف ، ويرجو أن يغريها بالمال ، فعرض عليها رد أموالها التي نهبت منها ومن زوجها وأبنائها . وهنا ترد عليه قائلة في إباء وشمم : « يا يزيد ، ما أقسى قلبك !! تقتل أخي وتعطيني المال !! والله لا كان ذلك أبدا » .

ويتناقل العرب أخبارها ، فيزدادون إعجابا بموقفها وثباتها ، حتى كانت القبائل تنتظرها في طريق العودة إلى المدينة المنورة ، وتظل حشودهم أياما حتى يرون عقيلة بني هاشم التي استطاعت أن تحقر من شأن ابن زياد في الكوفة ، وابن معاوية في الشام .

ويستقر بها المقام في المدينة المنورة ، ويلتف حولها الناس ، فتندد بعدوان يزيد ابن معاوية ، وبغي عبيد الله بن زياد ، وطغيان أعوانهما على آل البيت .. فأثارت ثائرة الجميع ، وهيجت الألباب والمشاعر ، وألهبت بمنطقها السياسي الجماهير على حزب الشر .. وهنا خشي يزيد على نفسه ، فأمر أن تغادر المدينة إلى حيث تشاء من البلاد في أرض الله ، فيما عدا الحرمين الشريفين .

وطبيعي أن ترفض الرحيل من بلد الأجداد والآباء والأحباب ، وأن يتمسك بها الناس ، فقد رأوا في أحاديثها تنفيسا عما يكنونه ليزيد وأعوانه وزبانيته من كره واحتقار .. وتتدخل ابنة عمها عقيل قائلة : « يا بنت عماه ، قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء .. فطيبي نفسا وقري عينا ، وسيجزي الله الظالمين .. أتريدين بعد ذلك هوانا ؟! ارحلي إلى أي بلد آمن » .

وتختار السيدة زينب مصر دار إقامة لها .. لما سمعته عن أهلها من محبة ووفاء لآل البيت ، ولما عرفته من أن مصر كنانة الله في أرضه ، لها من السمات والسماحة ما يجعلها مكانا آمنا لأولياء الله .. فتجيئها مصحوبة بنفر قليل من آل بيتها وتبقى بها ما يقرب من عام ، فيه تمهد أرض الدار الآخرة ، يوم لقاء ربها .. وتكون دارها هي قبرها ، وهو مسجدها الآن .

* * *

عمر بن عبد العزيز

وإذا كنا قد خالفنا الترتيب التقليدي في سلسلة الخلافة الراشدة ، حيث لم نلحق خامس الخلفاء الراشدين بمن سبقوه من الخلفاء الراشدين الأربعة ، حين أتبعناهم بالحديث عن الإمام الحسين وشقيقته السيدة زينب رضى الله عنهما وعن أبيهما الإمام علي ، فإن ذلك راجع لسببين أولهما : لمكانتهما في الإسلام كحفيدين لرسول الله ﷺ ، وقد عاشا التجديد بأحلى معانيه ، سواء في بيت جدهما الرسول الأعظم ، أو في بيت أبيهما الإمام ، والسبب الثاني هو : أنهما وجدا في الحياة وفي الإسلام قبل خامس الخلفاء لسنوات طويلة ، ومن حقهما حسب التسلسل التاريخي أن يسبقاه ، مؤكدين أن هذا التقديم في الترتيب لا يقلل من قيمة وعظمة هذا الخليفة الخامس .

لكن خامس الخلفاء الراشدين يشاء القدر أن يكون من نسل بني أمية خليفة منصفا عادلا . أحسن علماء الأمة الظن به فاجتهدوا في توثيق الأمر له ، فهو خير من يصلح ما أفسده خلفاء بني أمية . ويواصل مع الدولة مسيرتها إلى التقدم . وليعيد للناس صورة الخلافة الإسلامية في عصر الأربعة الراشدين حتى ينعتوه بأنه خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . ويحقق للناس أملا تطلعوا إليه منذ صار الحكم فيهم جورا واستبدادا .

وتزودنا الكتب المهتمة بالتجديد بالكثير من إصلاحات عمر بن عبد العزيز منذ اللحظة الأولى التي يتولى فيها أمر المسلمين . فها هو ينتهي من صلاته على جثمان الخليفة الراحل حتى يرى خيلا وبراذين وبغالا مطهمة لكل دابة سائس فيسأل : ما هذا ؟ فيجيبونه : مواكب الخلافة يركبها الخليفة أول ما يتولى الحكم . فقال لهم :

دابتي أوفق . والتفت إلى غلامه وقال : يا مزاحم ، ضم هذه إلى بيت مال المسلمين . وفي العودة يسأله غلامه عن غمه وهمه بعد تولي الخلافة فيرد عليه : « ويحك ومالي لا أغتم ، وليس أحد من أهل المشارق والمغارب إلا وهو يطالبني بحق أؤديه إليه ، طلبه مني أو لم يطلبه » .

وفي البيت .. تقبل عليه زوجته الجميلة فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان لتهنئته بالخلافة . فلم يقابلها بالفرح والسرور ، وإنما خيرها أن تقوم معه ، على أنه لا فراغ له إليها وبين أن تلحق بأهلها .. وهكذا بدايات عظيمة لخليفة عظيم يقوم بمسئولية الخلافة ومواصلة رسالة الدولة الإسلامية .

وننظر إلى تاريخه لنتبين مواطن التجديد ، فنجد إعادة العمل بالشورى بعد استبداد طويل والقضاء على الفتن ، وجوانب أخرى يسجلها المؤرخون تذكرنا بعدل جده عمر بن الخطاب .

على سبيل المثال : يذكر الدكتور «وليد قمحاوي» في مقالته المهمة عن هذا الخليفة أن أعمال عمر بن عبد العزيز منذ تولى الخلافة كانت تدل على وعيه العميق لحقوق الشعب ولمسئولياته نحو هذا الشعب المالك الحقيقي لكل شيء. وأول ما يثير الإعجاب التاريخي بتصرفاته ، أنه لم يقبل أن يجلس على العرش لمجرد أنه من الأسرة المالكة ، أو لأن الملك الراحل قد أوصى له بالعرش من بعده .. فقد أدرك عمر أن : كرسي الحكم ليس متاعا يورثه فرد محظوظ لآخر ، وإنما هو ملك الشعب يعطيه لمن يشاء، وبإرادته الحرة . ولم تقنعه مبايعة الناس له لدى سماعهم بوصية الملك السابق ، وإنما وقف ليقول: « أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم». ولعل عمر كان يتمنى، وهو يخاطب الناس ويرفض ملكا تقدم له يد غير يد الشعب وبدون علمه .. يتمنى لو أعفاه الناس من هذا البلاء .. ولكن

الشعب الطيب عرف أن صاحب مثل هذا الرأي والشعور ، جدير بكل ثقة وولاء، فإذا بالناس أشد إصرارا وإجماعا على البيعة ، تنبع من إرادتهم الحرة . وغادر عمر المنبر واجما من عظم المسئولية الملقاة على عاتقه ، والدمع يفيض من عينيه ، تجاوبا مع ناس فتح لهم قلبه فرفعوه على رؤوسهم . وكان يعني كل حرف من قوله لهم : « إلا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم .. غير أن الله قد جعلني أثقلكم حملا » .

وخارج المسجد ، حيث تمت البيعة ، كان الموكب الملكي بانتظاره ، والشرطة مستعدة لمرافقته في الأبهة المعتادة . لكن عمر يصرفهم جميعا ، ويركب بغلته الخاصة ومعه وزيره ويمضى ، لا ليستقبل المهنئين ويتقبل فروض الطاعة والولاء ، أو ليمتع حواسه بما أعطيه من قصور وأموال وامتيازات .. وإنما ليقوم في يوم واحد بثلاثة إجراءات ذات دلالة ضخمة وآثار بعيدة المدى .

وكان أمره الأول : عزل واليين ظالمين ، قد ساما الناس ظلما واستغلالا . فقد خشى عمر أن يبيت ليله وما زال في دولته واليان يبطشان بالناس وحقوقهم ، باسم الملك وسيفه . وما كان عمر من الحكام الذين يقطعون دابر اللصوص ، لتصبح اللصوصية بكل ألوانها احتكارا لهم . لذلك .. كان أمره الثاني إعادة كل ما للملك والأسرة المالكة من قصور وأراض ومجوهرات إلى بيت المال .

حتى جواهر زوجته الخاصة وضعها في بيت المال ، ليقول لكل من راجعه في ذلك كله أن كل ما كان لدى الأسرة المالكة وحاشيتها من أموال وأملاك لم ينزل عليهم من السماء ، وإنما هي أشياء أخذت من الناس بجبروت السلطان .

وكان عمر قد أدرك أنه ما دام قد طرق سبيل العدل السياسى ، والعدالة الاجتماعية بهذين القرارين ، فإنه يستطيع أن يتخذ قراره الثالث في اليوم الأول من حكمه ، وهو إصدار الأوامر إلى الجيش العربي المتورط في بلاد الروم ، بالعودة إلى وطنه . ولم يكن هذا قرارا أملته ضرورة عسكرية بقدر ما كان رفضا لسياسة تقليدية

تقضى بإشغال الناس بالغزوات والحروب خارج نطاق وطنهم ومصالحهم ، لإلهائهم عما في داخله من جور وفساد . وطوال مدة حكمه ، لم يدفع عمر جيشه ليغزو أيا من البلاد الأجنبية حول الوطن .

وفي داخل الوطن بالذات ، كان عمر يعرف أن معاركه الحقيقية هنا ، وأن الجيش الأوحد الذي يمكن الاعتماد عليه في خوضها هو الشعب ، كل الشعب . وحتى يستطيع تعبئة شعبه لخوض معاركه الكبرى ، كان على عمر أن يخلصه من كل جور واستغلال ، وأن يسعى إلى توحيد صفوفه ، بتحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين أفراده كافة ، ثم يكون مع ذلك كله العمل الدائب على استثمار خيرات وطنه ورفع مستوى معيشته .

ولتخليص الشعب من كل جور واستغلال ، مضى عمر بن عبد العزيز قدما في تطهير الجهاز الحكومي من الفاسدين والظالمين والمستغلين ، وتعيين من يثق بعدلهم وحكمتهم ، مشترطا عليهم معاملة الرعية بالحسنى والإنصاف والابتعاد عن كل تجارة أو استغلال نفوذ في تحقيق مكاسب شخصية لهم . وكان من ذلك قوله : «لا يتجر إمام . ولا تحل لعامل (أي : وال) تجارة في سلطانه الذي هو عليه ، فإن الأمير متى يتجر يستأثر » . ولا نجد أروع من هذا تعبيرا عن ضرورة الفصل بين نشاط رأس المال ومقاليد الحكم ، وعدم السماح لأحدهما باستغلال الآخر ونفوذه . ولم يكن هذا سهلا ، فقد كان بنو أمية قد جعلوا مساحات من أخصب الأراضي الزراعية في العراق ومصر وغيرهما ملكا خاصا لهم ولأشياعهم يحتكرون وارداتها الضخمة ، ويستغلونها بواسطة مئات الألوف من الموالي الذين كانوا يجمعونهم من كل الأقطار ليشغلوهم في ظل أسوإ الظروف .

ولم يرض عمر لنفسه أن يكون مركزه مجالا ، حتى لأتفه ألوان التسلط والاستغلال ، ولو كان الأمر لا يتعدى الشكليات . فقد أبى أن يلقب بخليفة الله في

الأرض ، لما قد يوحيه هذا اللقب من قداسة وعصمة من كل نقد وتوجيه . واستنكر اضطهاد الأمويين لأعدائهم التقليديين : ذرية علي بن أبي طالب ، فأمر بعدم سبهم من على المنابر وبمعاملتهم بالحسنى والإحسان . ولم يسمح لخلقه أن تدنسه نزعة الغرور أو العنف أو الإسفاف ، ورفض حتى أن تستعمل زوجته دابة للدولة في قضاء حاجة بيتها يوما من الأيام . فقد كان عمر عميق الإدراك لمسئوليته الضخمة نحو شعبه ، يعبر عن ذلك بقوله : « إني نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة : أسودها وأحمرها .. ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلي عنهم » . ونحو الجائع والضائع والمقهور والمعدم وكل واحد من أبناء الشعب ، وعى عمر رسالته ، وأنه المسئول الأول عن كل ضيق يلم بهم أو مظلمة تصيبهم .

وكان وعيه- بجرأة وإخلاص- تمثل في رده على تهجم أحد كبار الأمويين عليه لمصادرته امتيازاتهم : « إنما حق الواحد منكم في مال المسلمين كأحدهم ، لك ما لهم وعليك ما عليهم .. فوالله لا أعطيكم درهما إلا أن يأخذ جميع المسلمين » ، وردا على وصف قريبه الأموي له بأنه ظالم لأهله ، تارك لسنة سلفه ، أجابه عمر وكأنه يخاطب كل وارث عرش جائر : « وأن الظالم التارك لعهد الله الذي استعملك (أي عينك) صبيا سفيها تحكم في دماء المسلمين وأموالهم .. وإن لم يكن ذلك له ولا حق له فيه».

وفي سبيله لتوحيد صفوف شعبه بتحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين أفراده كافة ، أدرك عمر بن عبد العزيز أن الإسلام ليس عبارة تقال أو طقوسا تقام ، وإنما هي ثورة إنسانية هدفها الأول بناء مجتمع سليم . وهكذا .. لم يكتف بإيقاف فتوحات، الغاية منها اجتلاب الغنائم وتحقيق المطامع ، وإنما أوقف أيضا سياسة أسلافه المتبعة في إثارة الفتن بين القبائل : « فرق تسد » ، وكل ما من شأنه تجزئة المواطنين كافة . ومن ذلك إلغاؤه السخرة في العمل ورفعه الجزية عمن أسلم . وكان

أسلافه الأمويون قد أبقوا الجزية على كل من يسلم ، جشعا منهم ورغبة في جمع أكثر ما يستطيعون من الأموال . ولم يستطع عمر أن يقبل أن يكون هناك تمييز ضرائبي بين المواطنين المتساوين ؛ فإن دخولهم الإسلام يعني أن يصبحوا متساوين في الحقوق تساويهم في الواجبات . فمن ذلك قوله : « وأما من كان اليوم محاربا فليدع إلى الإسلام قبل أن يقاتل ، فإن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وله ما أسلم عليه من أهل ومال . وإن كان من أهل الكتاب فأعطى الجزية وأمسك ، فإنما تقبل ذلك منه » .

وكما يسجل الدكتور «وليد قمحاوي» في مقالته الممتازة ، وهنا قد نجد من يتساءل : كيف نوفق بين فلسفة الحكم هذه العادلة ، وما يروى عن عمر من أنه أمر بأن يكون لغير المسلمين هيئة في اللباس والشارع تميزهم ، وبجمع السلاح منهم وإبعادهم عن المراكز القيادية الحساسة؟.. والواقع أن هذه الرواية ، إذا صحت ليست ثغرة في مفهوم عمر للحكم ، وإنما هي لبنة في مفهومه للإسلام ، الذي نستطيع أن نقول إنه مماثل لمفهومها الحديث للمواطنة . فإنه يفترض الآن أن كل من يقيم في بلد ، إما أن يعتبر مواطنا له ما لغيره وعليه ما على غيره ، وإما أن يكون غريبا ذا جنسية أخرى عليه ، أن يحتفظ بوثائقها ويتقيد بتعليمات معينة ، كما أنه لا يدعى إلى الخدمة العسكرية مثلا . وقد يغنينا عن شرح طويل لهذا التماثل بين المفهومين إذا تذكرنا أنه لم يكن في ذلك العهد حدود واضحة بين مفاهيم القومية والدين والمجتمع العربي والإسلامي ، واللغة العربية كلغة قوم أو كلسان أنزل به القرآن .

وعلى ضوء هذا التفسير ، يمكن أن نفهم جواب عمر ، لما كتب إليه أحد ولاته معترضا على رفع الجزية عمن أسلم تحت زعم : أن هذا ينقص واردات بيت المال ، فقد أجاب عمر بقوله إنه يتمنى أن يرى كل واحد يصبح مسلما حتى ليضطر كلاهما (الملك والوالي) إلى فلح الأرض بأيديهما لكسب قوتهما . فعمر قد فتح باب الثورة العربية الإسلامية على مصراعيه ليدخله جميع المواطنين على قدم المساواة .

أما العمل الدائب على استثمار خيرات الوطن ورفع مستوى معيشة الشعب فقد كان شغلا شاغلا لعمر بن عبد العزيز . ونستطيع هنا أن نذكر : أنه لما بعث إليه فلاحو البصرة يشكون ملوحة مائهم ، أمر بحفر قناة ماء عذبة تروي أرضهم وتسقيهم ، كما نستطيع أن نستشهد بجملة كتبها إلى ولاته في معرض حثهم على استصلاح الأراضي : « من غلب الماء على شيء فهو له ». أي : إن كل من استخلص أرضا من بحر أو نهر أو مستنقع فإنها تصبح ملكا له لا ينازعه فيه أحد . وكان من ذلك أمره بأن كل من أهمل أرضا خصبة ثلاث سنوات متتالية ، تؤخذ منه وتعطى إلى من هو جدير وقادر على استغلالها .

بل إن حب عمر لم يقتصر على الإنسان والأرض فقط ، وإنما شمل الحيوان أيضا، وكان له من عدله نصيب ، فقد كتب إلى أحد ولاته يقول : « لقد بلغني أن بمصر إبلا ثقالات يحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل » .

لكن أروع ما قام به عمر بن عبد العزيز : إجراءاته في مجال التكافل الاجتماعي ، سواء كان ذلك في مضمار ما تفرضه الدولة على المواطن من التزامات مادية ، أو ما يفترض في الدولة من التزامات تجاه المواطنين . فقد أمر بتخفيف الضرائب على المواطنين قائلا : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » . ونكون أكثر تقديرا لمعنى هذه الجملة متى أدركنا أن محمدا هنا تعني خلفاءه وثورته الإسلامية مثلما تعني : المجتمع وجهاز الدولة اللذين انبثقا عنهما . كذلك منع عمر ولاته عن أخذ الهدايا من المواطنين ، ورفع الجزية عن المسلمين ، وأنقص الضرائب المفروضة على غير المسلمين . أما واردات الدولة فلم يكن مصيرها جيوب الملك وأسرته وبضعة أفراد محظوظين ، وإنما كانت تصرف على جهاز إداري نظيف عادل ، ولحفظ الأمن في الداخل ومن الخارج ، وما يفيض عن ذلك ، وما أكثر الذي كان يفيض ، يوزع على المواطنين بقدر حاجتهم .. حتى إن عمر أمر بقضاء الديون عن الغارمين (أي :

المدينين) حتى متوسطى الحال منهم ، ومساعدة من يريد أن يتزوج فلا يجد إلى الزواج سبيلا ، ومن يعيل أسرة ولا يكفيه دخله .

لكن هل كانت هذه جميعا مجرد نيات طيبة في ضمير عمر بن عبد العزيز ، أو أوامر جميلة يصدرها فتذروها رياح الأهواء ؟ الواقع أنها لم تكن كذلك؛ لأنها أعطت نتائجها الرائعة ، على الرغم من قصر المدة التي عاشها في الخلافة .. وكانت أولى النتائج ابتعاد كابوس الظلم واستتاب الأمن : فلا فتن أو تناحر بين القبائل العربية ، ولا نقمة عند الموالي بسبب الجزية ، ولا كراهية تأكل قلوب بني هاشم ، ولا ذريعة للخوارج في مطالبتهم بأن «لا تكون الأموال دولة بين الأغنياء»، «فقد حرموها» ، ولا ضرائب فادحة يثور عليها الفلاحون ، أو حرمانا واستغلالا يضيق بهما محرومون مستغلون ، وكان أن استكان جميع المواطنين ، وكان الولاء لعمر بن عبد العزيز ينبع من كل القلوب .

وكانت ثانية النتائج : ارتفاع مستوى معيشة المواطنين كافة .. فقد كان من آثار تخفيف الضرائب عن الأراضي ، إقبال الفلاحين على زرعها وزيادة إنتاجها ، كما كان في استعادته الإقطاعيات الواسعة من بني أمية وأشياعهم وتوزيعها على صغار الفلاحين ؛ مما جعل هؤلاء يقبلون على زراعتها واستثمارها بنشاط وإخلاص ، فيزيد الإنتاج وتتحسن الأحوال . أما الصناع فقد أدى تخفيف الضرائب عنهم إلى تحسين أوضاعهم ، فلم يعودوا مضطرين إلى بيع مصنوعاتهم إلى الأغنياء والحكام بأثمان زهيدة لسداد ما عليهم من ضرائب ، وإنما غدوا يبيعونها بأثمانها الحقيقية ، محتفظين منها بحاجتهم أو مشترين ما يحتاجون . وكان أن زاد طلب السلع على ما هو معروض منها مع ازدياد الطاقة الشرائية ، وهذا من أهم العوامل في نمو الصناعة . وكذلك التجار أصبحوا أحسن حالا بعد أن تخلصوا من منافسة الولاة غير الشريفة لهم ، وغدت السوق مفتوحة أمام صغار التجار . حتى الدولة نفسها ، لم تقل

وارداتها بسبب تخفيض الضرائب ، وإنما على العكس من ذلك ، فقد كان خراج العراق مثلا أيام عمر بن عبد العزيز أكثر مما كان في العهد السابق ، عهد الحجاج وحاشيته ، إنه لم يبق في الدولة جائع أو محتاج أو محروم .

وكانت النتيجة الثالثة : إقبال الناس على الإسلام ، يدخلونه راغبين ، وندرك أهمية هذا الأمر إذا تذكرنا أن الإسلام : كان عقيدة مثلما كان مواطنة . وهكذا بلغ انتشار الإسلام ذروته في عهد عمر بن عبد العزيز .

لكن أسلوب عمر لم يكن مفروشا بالورد ؛ فقد ورث تركة مثقلة بالمشكلات والقشور النفسية والشكوك ، وتولى الحكم في وقت استشرى فيه الظلم والفساد ، ولم يقبل عمر أن يفرق بين غاياته ووسائله ، فتكون غاياته إنسانية ، ووسائله إليها غير إنسانية . لذلك .. لم يقبل أن يجعل البطش والظلم سلاحه في نشر الرحمة والعدل، وكان من ذلك قوله : « من لم يصلحه إلا الغشم (أي الظلم) فلا يصلح . والله لا أصلح الناس بهلاك ديني » . وكذلك قوله: « لأن يلقوا الله بخياناتهم ، أفضل من أن ألقى الله بدمائهم ». وكانت الرحمة والعدل والحكمة وسائل عمر في بناء مجتمعه المثالي .

فئة واحدة لم يتردد عمر في تجريدها من كل امتيازاتها غير المشروعة ، وفي تهديدها بالبطش والتدمير ، تلك هي : الأسرة الحاكمة ومن يماثلونها من الطغاة والمستغلين . فلقد رفض عمر أن تبقى هذه الأقلية متحكمة في رقاب الشعب وأرزاقه ، ترهقه بالظلم وتستنزف خيراته لنفسها ، وأدرك أنه لا يكفي أن يسترد منها سرقاتها ، وإنما يجب أن يكون تحذيرها ووعيدها ، سيفا مصلتا فوق رأسها ، حتى تثوب – مع الأيام – إلى رشدها . وكان من ذلك قوله لأحد بني أمية : « لو طالت بي حياة ، أو رد الله الحق إلى أصله ، تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأقمتكم على المحجة البيضاء .. ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأي أبته بيع رقبتك فإن لكل

مسلم فيك سهما ... ولولا ما يمنعني منك لبعثت إليك من يقضي على لمتك لمة السوء » .

وكانت هذه الأقلية ، تمثل العداوة الوحيدة لعمر طوال الشهور الثلاثين التى عاشها حكمه وثورته ، حتى ليروى أنها التى دست له السم ، فقتلته لتسترد ما فقدته في عهده من أسلحة الاستبداد والاستغلال .

وكانت نتيجة ذلك : انهيار الدولة الأموية ، كما فسر بعض الأمويين نادما : «إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، وظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا ، وجار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخربت بيوت أموالنا، وطلبنا أعداءنا ، فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

قال أحد الفقهاء : « ما خبرت أحدا الله أعظم في صدره من هذا الغلام » وما أقرب إلى هذا قولنا اليوم : « ما خبر العرب ملكا للشعب أعظم في ضميره من عمر ابن عبد العزيز » .

ولهذا ولغيره مما ذكره الدكتور «وليد قمحاوي» وغيره من المؤرخين ، يمكن أن يكون عمر بن عبد العزيز من بين مجددي القرن الأول الهجري وخامس الخلفاء الراشدين .

* * *